

د. ليلى حمدان



صفحات من دفتر الالتزام

في وقت أصبحنا نبصر فيه عودة الشباب المسلم لدينه، وإقبالًا متزايدًا على طريق الالتزام والاستقامة، يبحث فيه العائدون المقبلون، سبل تحقيق التغيير المثمر المؤثر في عمق حياة اعتادت على الكسل والتسويف والتيه والعبث، جاء كتاب (صفحات من دفتر الالتزام) كدليلٍ يُلخِّصُ لهؤلاء المقبلين على طريق الالتزامِ أهمَّ المراحلِ والخطواتِ والمفاهيمِ التي عليهم إدراكها واستيعابها؛ كي يضمنوا حسن استقامتهم، ويُحَقِّقوا التغيير المنشود ويستشعروا الفرق الشاسع بين القول والعمل، بين حياة الأمس الفارغة وحياة اليوم الجديدة الغنية. يخاطب الكِتَابُ تلك النفس البشرية بكل عيوبها وثغراتها، بكل أنواعها وأحاسيسها، ليقدم لها التشخيص الثاقب والعلاج اللازم لضعفها وحاجاتها، فتنتقل بعده من ثرى الأرض وعامة الناس لتحلق إلى ثريا السماء وخاصة العباد، أين تسمو وتعلو وتشع باليقين والسكينة والحياة ببركات رضا ربها ومعيته ورحمته وفضله العظيم؛ فتسجد شاكرة وحامدة.

د. ليلى حمدان

الكاتبة: دكتور / ليلى حمدان

كاتبة فلسطينية. نشأت وترعرعت فى ديار الهجرة بين بلاد العرب والغرب، حاصلة على درجة الماجستير فى الطب لكن هذا لم يمنعها من الانشغال بطلب العلم الشرعي والدعوة والأدب والإعلام والكتابة فى قضايا الأمة المسلمة.

عملت فى مجال الدعوة فى الغرب وكان لها نشاط فى إلقاء المحاضرات فى المساجد وتعليم أبناء الجالية المسلمة أصول دينهم وعقيدتهم وكذا لغتهم العربية.

عملت فى مجال الدعوة على الإنترنت للإشراف والعضوية فى منتديات لطلب العلم والدعوة. وحاصلة على دورات فى التسويق والتحرير الصحفى وكذا التصميم الدعائى.

شغوفة بالقراءة والمطالعة وكل ما ينمى المعرفة ويوسع بحر الثقافة. ولكن على أن يصب فى خدمة قضيتنا، ألا وهى نهضة الأمة المسلمة عزيزة شامخة واستعادة مجدها ورقيها.

حاليًا كاتبة فى موقع أمة بوست.






بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قال جلَّ في علاه: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الأنعام: ١٦١ - ١٦٥]

وقال أيضًا: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) [الزمر: ٩]

وقد تأملت في مشاكل الملتزمين فلم أجِدْ أفضلَ من تسليط الضوء على مراحلِ الالتزام درجةً درجةً حتى نشخص مشاكل كلِّ درجةٍ بخصوصيتِها ونلخص الشعور المشترك لكلِّ ملتزمٍ أو مَنْ هو في طريق الالتزام ونبحث حاجاته وطُرُق ثباته

فهرس الكتاب

مقدمة

عصيبةٌ تلك الأيامُ التي يمرُّ بها الملتزم الجديد، الذي نفض الغبار من كاهلٍ مثقَلٍ بهموم الدنيا وعَناء المسيرِ... حين يطلِّقُ حياة العبث ويلتفتُ للجِدِّ والدِّين، حينَ يقلِب طريقته قلبًا غيرَ مألوفٍ، لَمْ يعتَدْه أهلُه ولا مَنْ حوله من محيطٍ مفتونٍ!

كيف لهذا الفارس الجديد الذي أقبل ليجسِّدَ صورة المسلم التقيِّ المستقيم أن يتجاوز تلكَ العقبات والتحديات في طريق سـموِّ الروح والتعالي على فُتاتِ الدنيا لخدمة دينه وطاعة ربِّه.

كيف له أن يبحر بقناعاته الجديدة في بحرٍ متلاطمٍ الأمواج تتصـادمُ فيه القناعات وأهواءُ الناس.

لا شـكَّ أنه حديثٌ يثير شجون الملتزمين الذين شعروا أو يشعرون بالغربة عند أول خطوةٍ في طريق الالتزام وربما يشعرون بالاضطراب والخوف من تكملة المسير، فإنَّ ثمن الاستقامة في زمن الانحراف والبعد عن الدين يُعدُّ ثمنًا باهظًا، وفي معايير المنسلخين عن الإسلام، فإنَّه ضربٌ من جنون الإنسان.

و نظرًا لأهمية هذا الموضوع سنتناول القضية على مراحلَ راجين من الله أن تنفع الناسَ، سواءٌ منهم من كان ملتزمًا ماضيًا بثقةٍ على الدرب أو من كان في بدايات الالتزام فتتضح له آفاقُ الطريق و معالمه، أو مَن انبرى لثغر الدعوة فحمَل على عاتقه أمانةَ التبليغ و هداية الناس أو من يفكِّر في الالتزامِ و لم يخمِّنْ بعدُ تحدياتِ هذا الطريق و عواملَ النجاح، و ربما وقع على مسمع ربِّ بيتٍ أو ربَّةِ بيتٍ، فأدرك أو أدركَتْ مصابًا جللًا قد ألمَّ بعائلات المسلمين نتيجةَ التهاون في أمر الدين جهلًا تارةً و باسم التقدمية

و التحضُّر تارةً أخرى، ذلك التحضرُ الذي لم يزَلْ شعارُه الانفصال بل الانسلاخ من الدين، و أيِّ دينٍ، إنَّه الدينُ الذي حفر تاريخُه أروع الأمثلة للتقدم و حضارة البشر الفائقة التميز فكان الملتزمون به يتفاخرون على سائر الأمم بدرجة التزامهم به و إقبالهم عليه.

ويتفق أكثر من خاض غمار الالتزام على أنَّ البداية هي الأساس، هي المحددةُ لمصير الالتزام... إما أنْ يستمرَّ بقوةٍ أو يتعثر باضطرابٍ... إما أنْ يتوقف إلى حينٍ أو ينتكس في كلِّ حينٍ، وإما أن يمُنَّ اللهُ عليه بالثبات ولِذةِ الاستقامةِ بقيةَ عمرِه، فيكونَ من الفائزينَ أو يحرمَه جزاءً وفاقًا ونادى ولاتَ حينَ مناصٍ.

وقد تأملت في مشاكل الملتزمين، فلم أجِدْ أفضلَ من تسليط الضوء على مراحلِ الالتزام درجةً درجةً، حتى نشخص مشاكل كلِّ درجةٍ بخصوصيتها ونلخص الشعور المشترك لكلِّ ملتزمٍ أو مَنْ هو في طريق الالتزام ونبحث حاجاته وطُرُقَ ثباته.

الفصل الأول: الانطلاقة



إنَّ لكلِّ انطلاقةٍ ثغراتٌ ولكلِّ فردٍ هفواتٌ، وجمع الجميع في كيلٍ واحدٍ خطأٌ فقد تنوعتْ نفوس البشر واختلفتْ الأفهام في طريقة التعامل مع التغيير.

و قرار الالتزام قد يكون له دوافعُ مختلفةٌ حسبَ اختلاف الأفراد، فمنهم من ضاقتْ به الأرضُ لكَثرة انغماسه في الدنيا فشعر بوَحشةٍ و اعتلالٍ في الصدرِ، اشتاقتْ نفسه إلى التوبة و إلى تغيير مساره الذي جلب له الشتات و الفراغ الروحيَّ، فأقبل في ثورةٍ يريد أن يخرج من روتينِ حياةٍ ماديةٍ ممن لَمْ ينَلْ منه راحةَ نفسٍ و لا سكن روحٍ، لم يحقِّقْ فيه سعادةً و لا سرورًا، و أمثالُ هؤلاءِ كثيرٌ بل هذه الحالُ قد تكون عند غير المسلمين وهي السبب الأول لاعتناقهم الإسلام إذْ اشتركتْ قِصص التزامهم في هذا السبب الرئيس الذي قادهم للخلاص.

ومنهم من وقع في ذنبٍ عظيمٍ فكان أنْ خاف خوفًا عظيمًا وتذكَّر أنَّ الله شديدُ العقاب، ووقع في نفسه أنَّه أسرف في ظُلم نفسه وغيره، فعاهد نفسه معاهدةَ الحازم أن يكفِّرَ عن فعلته ويستقيم خشيةَ أن يُقالَ فاسقٌ أو يُشارَ عليه بين الساقطين. وطبعًا كلما كانتْ نفسُ البشر متأثرةً بدرجة الذنب كلما زاد إصرارها على محو عاره من الذاكرة بالجنوح للالتزام والاستقامة والتمسك بكلِّ ما يساعدُ في محو ذلك الأثر.

ومنهم من التقى في طريقه همةً ملتزمةً، همةً جذبَتْه سيرتُها وطريقتها، فأحبَّ أن يكون مثلها، وأنْ يقلِّدَها ويرتقيَ بأسلوبها في الحياة، فتجدُ عينه تدمع لإنجازِ مسلمٍ تقيٍّ أو لنجاح مسلمٍ داعيةٍ أو لذيوع صيت مسلمٍ مفكرٍ، فتتحركُ فيه عوالجُ النفس والمسابقة… فيتفكرُ في نفسه وما فيها من نقصٍ ويُقبِلُ للإصلاح بقوةٍ ويندفع في طريق التغيير.

ومنهم من نفعَتْ فيه النصيحة وصحبةُ قلبٍ صديقةٌ، عرفت أخطاءه فأرشدتْه وأتقنتْ فنَّ دعوته فاستجاب بلا ترددٍ بقلبٍ محبٍّ مقبلٍ.

ومنهم من نفعته دعوةٌ صالحةٌ من عملٍ صالحٍ كان قد أقدم عليه ونَسِيَه، بحق والديه أو جيرانه أو أصحابه أو مَنْ يجهل... فكانت بركتُها أن هداه الله بنورٍ منه إلى طريق الهداية والاستقامة.

ومنهم من أَقَضَّ مضجعه ما ينزِل بالمسلمين وتحركَتْ فيه مكامن الغَيرة على الدين وخاتَم المرسلين، واستشعر درجة الضَّعف التي هو فيها وكذلك فيها أمَّتُه، فأقبل على الالتزام حاملًا أمل التغيير لنفسه ولأمته.

ومنهم من ذاق مرارة العيش في الغرب و صُدم بتناقض الوصف، بعد أن خرج فرحًا فخورًا يختال بشهادةٍ و تأشيرةٍ و بضعة أموالٍ، يظن أن الحياة ستفتح له ذراعيها مُقبِلةً بلا حياءٍ، فتَفاجأ لبشاعة تلك الحضارة الغربية التي لم تحترم دينه و لا مظهره و ربما كشَّر بعضهم لمجرد ذكر اسمه العربي، و مع توالي أيامه في محاولة فهم واقع الغرب يكتشف عظمة الإسلام و كيف أن هذه الأمم مهما بلغت من رقيٍّ فلن تبلغ رقي عدالة الإسلام، فيجرفه الحنين لذلك الدين ويعود منكسرًا يرجو رحمة ربه، وربما هاله حقائقُ كان يجهلها قد حملها الغرب بغضًا للمسلمين فأخذته العزة بالدين وقرر أن ينتصر بالاستقامة وضَربِ القدوة من مسلمٍ في مجتمعٍ لم يعرف بعدُ عظَمة الإسلام، معتبرًا ذلك طريقته في الدفاع عن دينه.

ومنهم من غيرَتْ حياته حادثةٌ أو صورةٌ أو قصةٌ أو فاجعةٌ، ففتح الله له أبواب رحمته ليبحر في ملكوت عطفه وهدايته.

ومنهم من التزم بعد رحلةِ تحدٍّ ورهانٍ، بعد أن ظن أنه انتصر لسخريته من مظهرٍ من مظاهر الدين أو مظهر مسلمٍ مستقيمٍ، فانطلق محاربًا للإسلام وأحكام الإسلام معتمدًا عقله الناقص، حتى أوقفتْه معجزةٌ من الله، على يد مسلمٍ صادقٍ أو مُناظِرٍ مُبحِرٍ في علوم الدين، فانقطع به التحدي إلى الإذعان بالخسارة والإقبال بحبٍّ لدينٍ طالما حاربه وانقلب السحر على الساحر فبدلَ أن يُضِلَّ الناسَ... اهتدى.

وإنه لمن الصعب سرد جميع الأسباب التي تدفع بالمرء للالتزام ولكنَّنا ضربنا الأمثلة على سبيل التبيان لا الحصر.

مفاهيم على الملتزم معرفتها

مهما اختلفت الدوافع المؤدية بالمرء للالتزام فإنها تشترك كلها في حلقةٍ أولى واحدةٍ ألا وهي تَوَجُّهُ الرؤية إلى المسلك الوحيد وخطُّ الخطوة الأولى على طريق الالتزام، وهنا تتشابه المشاعر، بقلبٍ مرتجفٍ وصدرٍ مختلجٍ ودمعٍ في المُقَل لم يكَدْ يجفُّ، إنها مرحلة الإحياء للقلب القاسي الذي طرَقَه سهم الهداية فتصدَّع خشيةً لله، ثم ما انفك صاحبُه يستذكر ما فاته من رحَمات... فيكفّر عنها بدمعٍ أو كسرةِ قلبٍ أو سجدة فرارٍ إلى الله!

فيا مَنْ مَنَّ الله عليه بهذا الفضل...هذه مفاهيمُ عليك إدراكها قبل أن تبحر في هذا الدرب

أن الالتزام فضلٌ عظيمٌ من الله ومنّةٌ لم تأتِك من فراغٍ ولم يكن لِتَميّزُك أنت بالذات عن الناس... بل هو فرصةٌ ذهبيةٌ للانطلاق مسلمًا تقيًا... إلى مراتب الإيمان والعمل والتحصيل العليّة، تُعرض على كثيرٍ من الناس ولا يقطِف ثمرها إلا الجادون.

- أن الماضيَ لا يمكن أن نمحوَه ولكنْ يمكننا أن نصحح نظرتنا إليه، بدلَ أن ننظر إليه كعارٍ نريد أن ننساه للأبد نعمَد لاعتباره المحفِّز لنا للثبات على الطريق، والأزَّ لنا للتكفير عن التقصير بمضاعفة العمل والمسابقة، وكذلك كان يتذكر الصحابة رضي الله عنهم عصر الجاهلية فيدفعهم الخوفُ من الرجوع إليه... إلى البذل والاجتهاد والإحسان والمسابقة، وكلما ذكروا الجاهلية تذكَّروا فضل الإسلام عليهم وكيف أنقذهم من ظلامٍ وتيهٍ فكان لسان حالهم يقول:

الحمدُ لله إذْ لم يأتني أجلي حتى لبستُ مِنَ الإسلامِ سِرْبالا

- أن الرحلة لن تكون بتلك السهولة دون امتحان الصدق مع الله، فالابتلاء ضريبة الإقبال والمسابقة للعلياء، فلا يحسَبَنَّ المرء أنه سينعم بحياة رخاءٍ وسكينةٍ مستمرةٍ فلا بُدَّ له من ألمٍ ليحل بعده شعورُ لذة السلامة ويدرك حكمة الابتلاء، فلا يجعلْ الملتزم الابتلاء سببًا للانتكاسة بل لزيادة الإقبال لأنه دليلٌ على صحة الطريق. قال تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) [العنكبوت: ٢] وقال: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) [محمد: ٣١] وقال: (وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) [البقرة: ١٥٥]
- أن المحيط الذي ينطلق منه المرء مختلفٌ من ملتزمٍ لآخر، منهم من يمثِّل له تحديًا كبيرًا وعقبةً كأداء، ومنهم من يكون سهلًا خِصبًا يشد أزره ويعينه على التكاليف ومنهم من يصبحُ-أي ذاك المحيط-هدفَ هِمتِه الأول فينطلق لتغييره قبل أن يتفرغ لأهدافه السامية لأنه أبصر القدرة على ذلك.
- أن الأجر على قدْر المشقة وأن الرفعة على قدْر السعي وأن السباق على أشُده في ميدان الالتزام، فلابد من تجديد الهمم والأفكار والأهداف وتحديد خارطة الطريق للعلياء وتجريد النفس من حظوظها.
- أن التغيير يبدأ من النفس هذا صحيحٌ وأيضًا بتهيئة الأسباب لهذا الالتزام والبحث عما يساعد الملتزم على الثبات.
- أن التغيير ينجح بقَدْر إيماننا به، بقَدْر عزمنا على النجاح فيه، بقدر اجتهادنا في تحصيل الأسباب المعينة على إنجاحه.

- أنك لست الوحيد ممن خاض غمار هذه المرحلة، ولا شك أن لكل نفسٍ قدراتِها وسَعَةَ فهمها، وتلاقحُ الأفكار يأتي بالاطلاع على تجارب الملتزمين، فيُثري المعرفة بعلوم هذا الدرب ويعين على تخطي العثرات والاستفادة من الخبرات وإتقان الخَطَوات.
- أنَّ البدايةَ كانتْ فِرارًا إلى الله، فاحذرْ أن تُكِبَّ على وجهك من أول خَطوةٍ فيدخلَك الرياء أو العُجب بالنفس لأن الله فتح عليك الأبواب المؤصدة، أو أن تَنقُضَ غزلك باغترارٍ يُرجِعك إلى ما قبل بداية الالتزام.
- اعلم أن للإقبال على الله طعمًا جديدًا في حياتك، تزداد حلاوته كلما أخلصتَ الطلب وتزداد عطاءاته كلما أخلصتَ النيّة.

فَجُدَّ تَجِدْ ولا تستعجلْ أو تتذمرْ، فلَذَّةُ الثمرة بعد نضوجها تستحق الصبر والبذل.
(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) [فصلت: ٣٥]

لقد انتهينا من الحديث عن مرحلة الانطلاق وإن كان باختصارٍ، وسنكمل الحديث عن بقية مراحل الالتزام... فكونوا بالقرب، لنكمل هذه الصفحات من دفتر الالتزام.

الفصل الثاني: تجلي ملامح التغيير والتزام الصلاة



تذاكَرْنا في صفحتنا الأولى من صفحات دفتر الالتزام تلك الانطلاقة التي يبدأ فيها الإنسان رحلة التغيير، رحلة التحدي بل رحلة الإنجاز... وهي المرحلة التي لن يشعر بها أحدٌ، لأنها في الخفاء لم يُبصِر فيها الناس ملامح التغيير الذي طرأ على الملتزم الجديد بعدُ، ولكننا نبهنا إلى أن العَقَبات لابد أنها ستتربص به كتَرَبُّص الذئب بالغنم، يتحيَّن الشيطان خلالها الفرص ليعيده إلى نقطة الصفر ويجتهدُ في ذلك قبل أن يشتد بنيان قلبه ويتحصن من كل اختراقٍ ينقُض معه الغزل.

في هذه الصفحة سنتحدث عن أولى العقبات في هذه الطريق، أولى العقبات التي سيصطدم بها الملتزم الجديد عندما تبدأ ملامح التغيير بالتجلي والظهور، إنها عقبة الأهل والأقارب والأصدقاء والجيران وكلُّ من هو في محيط الملتزم الجديد، الذين دَأَبوا على رؤيته بصورةٍ مختلفةٍ... بسلوكٍ مغايرٍ عما عزَمَ أن يكون عليه، فاليوم سيدخل عليهم بصورةٍ جديدةٍ، بنَفْسٍ جديدةٍ، بعقلٍ جديدٍ، فكيف سيكون اللقاء، تصادمًا أم انشراحًا!

نعم فقد أَلِفُوا طريقتك في العيش سابقًا ولا بد أن يكون ثمةَ مرحلةُ تعويدٍ أو إلزامٍ لهم لقُبولك كما أصبحتَ الآن، هي مرحلةٌ بقَدْر ما يكون نجاحك فيها قويًا بقدر ما يكون مسيرُك على درب الالتزام قويًا، وأنت بين أن تدخل تدريجيًا لهذه المواجهة أو أن تتلطَّف في الخطاب حتى تستقر بأمانٍ بحسب الوسط الذي أنت فيه.

ولا شك أن أول ما يلحظه الأهل والأقارب في الملتزم الجديد، المواظبة على الفروض من صلاةٍ وصومٍ... وهي أول مرحلةٍ قد تدفعهم للتساؤل، ما الذي يجري؟!

هنا يتحتم على الملتزم الجديد أن يواجه الأمر بثقةٍ تامةٍ واعتزازٍ، إنها فروض الإسلام التي لن أتخلى عنها أبدًا ولو عاداني عليها كل من في الأرض، إنه الحد الأدنى الذي أنت مطالبٌ بالحفاظ عليه مهما كلّفك من ثمنٍ، فصلاتك وصيامك وفروضك التي فرضها الله عليك لا مجالَ للجدال فيها، هي محل إثبات قوة شخصيتك، هي مربط فرس كينونتك، أكون أو لا أكون!

لن تستجدي من أحدٍ رحمةً ليقبلَك بها، وإنما تفرض نفسك بالقوة منذ أول يومٍ، فعندما يحينُ وقت الصلاة، ستقوم دون تسويفٍ لأداء فرضك، ولا يعنيك تعليق المستهزئين ولا المُخذِّلين، وخير ما تفعله أن تصلّيَها بعيدًا عن أنظارهم حتى لا يستغلوها في تشويشك أو قطعك عن خشوعك... داوِم عليها في المسجد وإن تعذّر ففي غرفةٍ منعزلةٍ، لأنك ستبتعد عن أي تأثيرٍ قد يُفقِدُك لذة هذا اللقاء الشرياني.

إن نجحتَ في فرض هذا النمط الجديد في سلوكك أمامهم، فهم سيحترمون هذا التغيير مع الأيام، سيدركون أنه خطٌّ أحمرُ لا جدال فيه، وأنْ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، ولن تجد إلا ما يسرُّك في قابل الأيام لأنك من حيث لا تدري قد خلقتَ في أنفسهم شعورًا بالضَّعف، بالنقص... بالخطأ... بالذنب، حين يرون فيك الالتزام على الصلاة، إنها رسالةٌ روحيةٌ تصلُهم ولا يبدونها لك وقد تكون هذه الطريقة لوحدها كافيةً لأن تهديَ من أحببت!

حديثنا هنا لا شك أنه عن وسطٍ عائليٍّ ومحيطٍ لا يحترم الالتزام... لا يصلي... لا يهتم لفروض الإسلام، وإلا فإنها السعادة المطلقة حين يحتضنك بيتٌ قد رُفِع فيه صوت التكبير عند كل صلاةٍ ويكسو زواياه خشوعُ البيت المسلم في رحاب ذكر الله.

ثم إنك بعد هذه العقبة الأولى قد يتجرأ مَنْ دَأْبُه العناد ليخرجك من مملكتك السامية فيجرب معك حبال الشيطان، فاقطعها من البداية ولا تُداهِن، فوقت الصلاة وقتٌ لا جدال فيه، لا تسويف فيه لا انشغال عنه... وقت فروضي التي هي من شأني لوحدي لا شأن لأحدٍ آخرَ بها.

هذه المرحلة قد تستغرق منك وقتًا قصيرًا جدًّا بحسب قوة حزمك، لتنطلق بسرورٍ لغيرها من مراحلَ، فكلما كنت حازمًا في هذه فلن يكون الذي أمامك إلا أهونَ ولكنك إن تردَّدْتَ وتلكَّأْتَ في هذه فأنت بحاجةٍ لمعالجةٍ نفسيةٍ بإلقاء نظرةٍ على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسِيَرِ الصحابة ورجالات الإسلام كيف أخذوا هذا الدين قضيةَ حياةٍ أو موتٍ، وانطلقوا بثباتٍ شامخٍ في وسطٍ جاهليٍّ هو الأقبح والأبشع مما قد

يتخيله المرء! فكان نجاحهم مبهرًا خلّدوا به سِيَرَهم المتوجة بالبطولات. إن شعرْتَ بضعفٍ في الإرادة فأنت إذًا بحاجةٍ لِأَنْ ترتشف من عقار تاريخنا الماجد جُرعاتٍ تُحيي همتك، توقد فيك الشوق وتشرق معها الروح، فتندفع مقبلًا، لا يوقفك أحدٌ، اقرأ ثم اقرأ ثم اقرأ كل ما يرفع همتك، اجعل للكتاب ساعة صحبةٍ لا يناجِزُك فيها أحدٌ، استلهِم منه الأفكار، دعْها تنسابُ لداخلك فتداوي تلك الخلايا التي أَلِفَتْ الخمول والكسل والتسويف، أنعشْها لتهتزَّ وتربوَ كما يربو الزرع تحت المطر!

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]

أنت الآن تتحسس بنفسك كيف تتفكك العقد النفسية المُخذِّلة، أنت بعد هذا القسط الوافي من المطالعة والاطلاع على المحاضرات الملهمة بدأت تدرك سهولةً في المهمة، إنه كذلك التيسير الذي يمنّ الله به عليك ببركة الصلاة وببركة المحافظة عليها، فالله سبحانه وتعالى رحيمٌ بعباده لم يُسلِمْهم للشيطان إن حصنوا أنفسهم بذكره، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]

وكلما واظبت بإتقانٍ كلما ارتقيت بجدارةٍ، كلما حققتَ درجةً ساميةً في سلم الدرجات إلى العلياء.

أنت الآن مسلمٌ مُصَلٍّ، وكفى به إنجازًا... إنه أول ما يُسأل عنه المرء، عن صلاته التي هي عماد الدين التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، التي إن صَلَحَتْ صَلَحَ معها عملك وإن فسدت فسد معها عملك.

خذ إذًا وقتك في البحث عن طريقة الصلاة الصحيحة كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابحث عن الأذكار ومعانيها... عن أجر الصلوات والمسابقين لها، ولا تندفع بقوةٍ لأداء النوافل مرةً واحدةً بل تدرَّجْ بقدر استطاعتك وضع أمامك دائمًا حدًّا أدنى لن تتنازل عنه حتى الموت! إنها فروضي الخمسة!

قم وكبِّر وألقِ خلف ظهرك كل هذه الدنيا بمَلَذاتها لتدرك كيف تكون اللذة الحقيقية عند لقاء بارئك، ثم استعن بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذٍ رضي الله عنه:

يا مُعاذُ، والله إني لأُحِبّك فلا تنْسَ أن تقول في عَقِب كل صلاةٍ: اللهم أعِنّي على ذِكْرك وشكرك وحُسْن عبادتك".

لا شك أن الحفاظ على الصلاة يستلزم منك جهدًا آخرَ ألا وهو مقاومة المُغرِيات التي ستُنسيك مواعيد الصلاة والتخلص من كل مُلهِياتٍ قد تحرمك الفرض الثاني من فروض الإسلام، وقد تجاوزنا مرحلة فرض النفس أمام الأهل والمحيط الذي تعيش فيه، ولكن بقيت عقبةٌ متعلقةٌ ببرنامج حياتك بمؤثراتٍ قد تكون ملازمةً لك ولا يمكنك التحكم فيها.

نعم فقد تتحد المؤثرات من جميع الأطراف المحيطة بك، لتسبب لك عَقَبةً ثانيةً تُثنيك عن المواظبة على صلاتك وكذا جميع فروضك، لابد من تجاوزها بحكمةٍ وذكاءٍ.

وأمام هذه العقبة لابد لنا من تفصيلٍ، فالوسط الذي يحيط بك، قد يبتدر حالة التغيير التي لمَحَها فيك، بشيءٍ من اللامبالاة باعتبارها نزوةً عارضةً وسلوكًا متأثرًا سيزول بعد حينٍ، فإن أنت واصلتَ الثبات على موقفك، ستصطدم بمرحلة التضييق أي ستواجه هجومًا نفسيًا لا ينفكُّ يؤرقُ مسيرتك...

ثم تتصاعد المحاولات من أجل أن ترجع عن التزامك وحينَها لا تعجَبْ إن رأيت نفسك حديث الساعة الذي يلوكونه بألسنتهم، يتلقفونك من كل الأوجه بالسخرية والتهكم والإعقابة والذمّ وغيرها من أساليب التجريح، ولا تستغرِبْ إن شعرتَ كذلك بوطأة الحسد الذي يتمنى صاحبُه زوال النعمة عن الغير.

وهنا عليك أن تتذكر الفرق بين المراتب التي ميّز الله بها الناس، فلا شك أنك إذا ارتقيت درجةً في السلم لاقيت حسدًا ونقمةً ممن لم يحظَ بمثل هذا التميُّز ووَدَّ لو

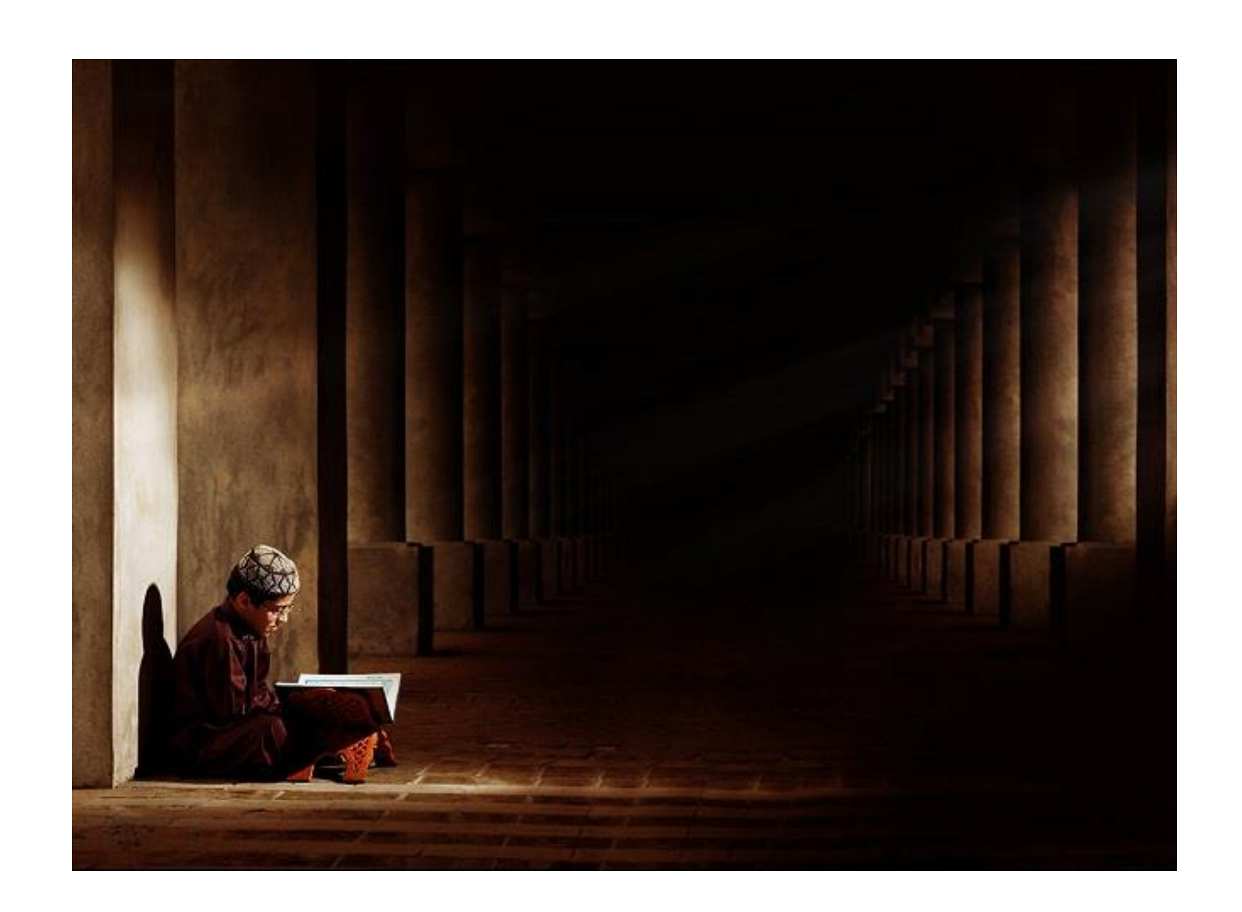
بقِيتَ مثله تُسَـلِّيه في محنته وتهوّن عليه حالة الغبن التي يعيشـها وكما يقال إذا عمَّتْ خفَّتْ، ولكنَّ السبق من الآخر ثقيلٌ على النفس!

فحـاول ألا ينفردوا بـك، ألا يُجمِعوا أمرهم على حرمـانك هـذا الفضـــل، لا تلتفِتْ لاستثاراتهم لا تُبالِ باستفزازاتهم بل قابِلْها بهدوء المُشـفِق وحكمة المدرِك وحِلم البصير، ولا تنسَ أن تسـتعين بمن قد يؤمّن لك بعض الاسـتقلال ممن تعرف فيه صلاحًا وتأثيرًا في عـائلتك، هكذا يكون لك موطِئُ قدمٍ في محيطك، تحفظ به حقك كمسـلمٍ قرر الالتزام بتعاليم دينه الحنيف فإن لم تجِدْ فكن أنت المســتقل... موظِّفًا الحكمة في الخطاب والتدرج في دفعهم إلى تقبُّلك، لا تكن فظًّا غليظ القلب بل مُحبًّا يطلب الحق!

ولا تقلق فإن هذه التصادمات والأذى إنما يبتليك به الله من أجـل أن يصـــقُل الإيمان فى قلبك ويشـــتد عزمك. وليحدوك قول الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَــهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]

هنا وصلنا لنهاية صـفحتنا الثانية من صـفحات دفتر الالتزام، وسـنواصـل الحديث في الصفحات المقبلة عن نوعٍ آخرَ من العقبات التي ستتربص بك خلال هذه المرحلة الأولى من بداية التحرر والانطلاق إلى فضاء السكينة والسعادة والارتقاء... فكن بالقرب.

الفصل الثالث: الجوهر ثم الشكل



إن الانتقال إلى مرحلة التغيير وتجلي ملامح الالتزام على سلوك الملتزم الجديد لابد أن يوازيَه تغييرٌ في مشاغل القلب واهتمامات الذهن وطريقة النظر إلى الحياة، فليس الالتزام مجرد أداء خمسة فروضٍ في اليوم والليلة في حين يعيش القلب وحشة الذكر ووصال السماء!

وهذه من النقاط التي يقع فيها الكثير من الملتزمين الجدد، إذ يكرّس وقته في شكله ومظهره الملتزِم في حين روحُه لم تلتزم بعدُ ذلك العِناق السماوي، وقد يؤدي صلاته بانتظامٍ ويحافظ على أوقاتها ولكنها صلاةٌ تفتقد حضور الروح واستشعار الإيمان، ويعود تشخيص هذه الحالة إلى كونه يؤدي العبادة حركةً لا روحًا، ولأنه يهتم للشكل وينسى اللبّ... ينسى المضخة التي إن فقدَتْ الزادَ والتزود ضعُفت وهان عليها التراجع.

ولهذا فإن التركيز في بداية الطريق على التزام الصلاة لابد أن يرافقه الحرص على العبادات القلبية التي تؤهل الملتزم لخوض الصعاب وتحدي العقبات التي تتخلل مسيرته.

والصلاة فرضٌ من فروض الإسلام التزامها بلا شكٍّ سيعطي الحياة طعمًا جديدًا... ولكنَّ التزامها باجتهادٍ في الخشوع سيعطي الحياة طعمًا أكثر رُقيًا من الانتظام والتوازن، وشعور الاستقرار والسكينة، فبالصلاة قد وضعْتَ لَبِنَةً أساسيةً كانت تفتقدها نفسُك حين كنت غافلًا، فما إن وضعتَها في مكانها حتى اتزن البناء واستقرتْ النفس، ذلك لأن الصلاة عماد الدين بها يستقيم البناء.

وكونَك لم تعتَدْ على صلاةٍ منتظَمةٍ في خمس أوقاتٍ قد يصيبك فتورٌ أو كسلٌ أو ربما نسيانٌ، فبادر بالمعالجة بذكر الله في كل يومٍ، وكونَك في بداية الطريق فإنَّ التزام الاستغفار بورِدٍ يومي سيكون سببًا مهمًا في تغيير حياتك تغييرًا لن تتوقعه، ولماذا الاستغفار بالذات فلأنك في هذه المرحلة أكثر حاجةً للاستغفار كمُقبلٍ تائبٍ، ولأنها تنقيةٌ للقلب ومحوٌ للذنوب وسواد الفتن، وتقويةٌ للجوارح والنفس لخوض صعاب الوجود.

قال علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه:" عجبتُ لمن يهلك والنجاة معه! قيل له: ما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: (الاستغفار).

إن أنت داومتَ على ورد الاستغفار اليومي واقتطعت له وقته ولم تتنازل عنه قطٌّ ولم تعجزْ عنه أو تَكِلَّ فستتذوق متعةً من نوعٍ خاصٍّ! وما أسهل ذكرَ الله، فأنت تستطيع أن تذكُرَه قائمًا أو مستلقيًا، راكبًا أو راجلًا، في نفسِك أو بصوتك، هي عبادةٌ حرةٌ غيرُ مقيدةٍ بوقتٍ ولا بطريقةٍ بعينها، استغفر الله مئةَ مرةٍ كحدٍ أدنًى في اليوم، ولن ترى بعدها إلا التيسير في أمور حياتك كلها وعلى رأسها إقامة الصلاة.

الشيطان سيتسلل إليك في وقت صلاة الفجر ليثنيَك عن خيرها، وعن أجرها وبركتها، فقاوِمْه بالأخذ بالأسباب والنوم في وقتٍ لا يحرِمُك الاستيقاظ حينَ تحينُ، وعالج أي عجزٍ بفترة قيلولةٍ تَقيلُ فيها حين لا تَقيلُ الشياطين، فيأخذ جسدك الأسباب التي تمنعه من تضييع فرضٍ عظيمٍ كصلاة الفجر. وتذكَّرْ ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1] واحتسِبْ كل ما تبذله من جهدٍ وكل ما تنويه من فعلٍ يقربك من الله فالاحتساب عبادةٌ قلبيةٌ قلما يتذكرها الناس.

ومع الأسف فإن صلاة الفجر هي أكثر فرضٍ يضيعه الملتزمون الجدد في بداية التزامهم لِما اعتادوه من حياة الكسل والخمول أو العجز، فإياك أن تتراجع إن رأيت في نفسك صعوبةً في التزام الفجر في وقته، بل احرص على استعمال المنبه وإن فاتتك الصلاة في حينها فقُم واقضِها، و جدِّد العزم على تِكرار المحاولة حتى يفر الشيطان منك ويسأَم، ثم داوِ هذه العثْرة بأن تستدرك نفسك بعملٍ آخر، إن أنت ضيعت صلاة الفجر، مثلًا أن تُلزِم نفسك بقراءة وردٍ من القرآن مُضافٍ أو إخراج صدقةٍ أو صلاة نافلةٍ، تلتزم بأدائها إن أنت فَوَّتَّ على نفسك أداء هذه الصلاة في وقتها، وهكذا سيعتاد الشيطان منك طريقةً مختلفةً في الحزم مع النفس إن خانتْك قدرتُك على الوفاء بالموعد، عوِّدْه

[1] الإسراء ٧٨

أنك إن ضيَّعت الفجر فستُقبل على أنواع الخير التي تغيظُه لعلك تستدرك ما فاتك من أجرٍ عظيم فيخنَس، واحتسب واتَّعِظ وكن من العازمين على أن لا يفوتك بعدها صلاة فجرٍ أبدًا.

وخير ما تحفظ به سائر الصلوات هو المبادرة لأدائها في أول الوقت، تعاملْ معها كمواعيدَ ثابتةٍ يجب أن تفيَ بها، إياك والتسويفَ، فما إنْ تسمع النداء أو منبه الصلوات قم وصلِّ. بهذه الطريقة ستضمن هزيمة الشيطان هزيمةً ساحقةً. وبهذه الطريقة ستصبح المواقيت الخمس حياتيةً في يومك وليلتك، قد أدمنْتَها بانتظامٍ فأصبحتْ لك كالماء، لا يمكنك الاستغناء عنها فهي جزءٌ منك.

وتأمل معي قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الصلاة أفضل الأعمال، وهي مؤلفةٌ من كَلِمٍ طيبٍ وعملٍ صالحٍ؛ أفضلُ كَلِمِها الطيب وأوجبُه القرآن، وأفضل عملها الصالح وأوجبه السجود." وما أدراك ما السجود إنه الموقع الذي يكون فيه العبد أقرب ما يكون من ربه وفيه يكون الدعاء مستجابًا، فعليك بتحري خير الدعاء في سجودك كي لا يخلوَ من طلب الاستعانة بالله والثبات على طريق الاستقامة.

لاحظ معي أن العبادات القلبية أنواعٌ وذكر الله أحد هذه الأنواع، وأيضًا الذكر بحد ذاته أشكالٌ مختلفةٌ، منها أذكار الصباح والمساء، فاحرص على التزامها كما يلتزم المرء ضرورات الحياة، احفظها أو اقرأها من كُتَيِّبِك، المهم ألا تتوانى فيها، وإن فاتك أداؤها في وقتها فبادر لذكرها في اللحظة التي استحضرت فيها أنها فاتتك، قال ابن القيم رحمه الله: أذكار الصباح والمساء بمنزلة الدرع كلما زادت سماكته لم يتأثر صاحبه، بل تصل قوة الدرع أن يعود السهم فيصيب من أطلقه...

لذكر الله حلاوةٌ تربطك بالسماء... بخالقك في إقبالٍ، فأنت تنعِش روحك وكينونتك بذلك التفكُّر ومداومة الاتصال بربك، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ). [٢] فاجعل كل حركةٍ وسكنةٍ في هذه المرحلة-وغيرها-معلقةً بالله... بالتفكر وبالدعاء، الدعاء عند الأكل وعند الفراغ منه، دعاء الخروج من المنزل دعاء الدخول إليه، دعاء الدخول إلى الخلاء، دعاء الخروج منه، دعاء لبس الجديد، عند النوم والاستيقاظ، تعرَّف على الأذكار والأدعية، واجعل حصن المسلم رفيقًا صغيرًا يسكن في جيبك، سيسهِّل عليك استذكار الأدعية ويسهل عليك التعرُّف على أسرار هذا الذكر.

يتسرَّع بعضهم في الذكر بالاهتمام بالكثرة وأنا أقول عليك باستشعار الذكر والإخلاص فيه، كانت رابعةُ العدوية تقول:" أستغفر الله من قلة صدقي في قولي، أستغفر الله ." واستدلَّ بهذا الفضيل بن عِياضٍ-رحمه الله فقال:" استغفارٌ بلا إقلاع توبة الكذّابين؛ ويقاربه ما جاء عن رابعةَ العدويّة: (استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير)".

فَعِشْ حقيقة الذكر وليس لفظ الذكر فحسبُ، إنه أمرٌ جِدٌّ وليس بهزل، أن تذكرَ ربك وتصبح من الذاكرين ثم يذكرك الله فيمن عنده من خير ما خلق! فيا لها من مرتبةٍ سهلٍ منالُها وقليلٌ همُ المسابقون لها.

ذكرتُكَ لا أني نسيتك لحظةً... وأهون ما في الذكر ذكر لساني

قال صلى الله عليه وسلم: (سبعةٌ يظلهم الله في ظله يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه... ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)[٣].

انظر الآن هل تستوي حياة ذاكرٍ لله وغافلٍ عن ذكر الله، كلا بلا شكٍّ، إن حياتك يكسوها اليوم نوعٌ من الخشوع، تزدان بالقوة والتحرر، وقوة البصيرة والتأمل، أصبحْتَ تشعر أنك مختلفٌ، متزنٌ محلّقٌ!

---

[٢] الجمعة ١٠

[٣] متفق عليه.

فالله سبحانه بقدر تقرُّبك منه يقترب منك، قال الله تعالى في الحديث القدسي:" من تقرّب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً".

وبقَدْر صدقك في الإقبال بقَدْر استشعارك لقوةٍ في الإيمان وتغييرٍ جذريٍّ في حياتك.

مَنْ أَقْبَلَ إلينا تَلَقَّيناه من بعيد ومن أراد مرادَنا أردنا ما يُريد

ومن سَأَلنا أعطيناه فوق المزيد ومن عمِل بقوَّتنا ألنَّا له الحديد

إن التزامَك ذكر الله سيخفف عليك أعباءً كثيرةً من بينها تسلل الشيطان في كل حينٍ لتأخيرك عن الصلاة ومنها شَغْلُك بسفاسف الأمور وملهِيات الدنيا التافهة ومنها إضعاف إيمانك وإغراقك في بحر الغفلة والنسيان.

كن اليوم سعيدًا فأنت مسلمٌ يصلي ويحافظ على أذكاره، ويا له من إنجازٍ، إياك وحرقَ المراحل لا تعاجلْ نفسك ليقال هذا ملتزمٌ، التزامك الداخلي أهم من التزامك الخارجي، فالأساس أهم من الطلاء، والعبادات حين تكون بإيمانٍ راسخٍ ويقينٍ متجذرٍ خيرٌ من عباداتٍ شكليةٍ حركيةٍ لا تقدِّم إلا مظهر الجوارح! أنت تحصِّن اليوم صدرك وقلبك من كل اختراقٍ يتربص به فكُن على ثقةٍ أنك تمشي في الطريق الصحيح وأن أي شدةٍ ستزول مع مداومة هذه الطريقة ومحاربة حبائل الشيطان بالذكر ثم الذكر ثم الذكر. وإن خشَع قلبك لزامًا ستخشع جوارحك.

ثمةَ أقوامٌ يلهج لسانهم بذكر الله إنهم أناسٌ استشعروا تلك اللذة في الوصال، لأنها لذةٌ لا تنتهي، فظهرتْ ملامحها على وجوههم كنورٍ يشع في ضوء النهار، فإن منَّ الله عليك بمثل هذا التميّز فاشكر الله ولا تغترَّ بنفسك فإنما هو فضلٌ من الله منَّ به عليك لتفر أكثر لله ولتشعر بالتواضع والإنابة لا الكبرِ والاستعلاء على من حولك.

وكلما رأيت في نفسك إقبالًا والتزامًا، اشكر الله واحمَده على هذا الفضل ولا تَعُدَّه ذكاءً منك بل هو كرمٌ من الله، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فحافظ على النعمة وداوِم عليها حتى تتذوق لذةً من الإيمان يغبِطك عليها الأولون والآخرون.

قوِّ بنيان إيمانك في الداخل، استعن بمطالعة الرقائق وأسرار العبادات القلبية، كن عمليًا واجعل قراءاتك وَفق حاجتك الروحية، فإن كنت تعمل على تعويد نفسك الذكر فاقرأ عن أجر الذكر وتاريخ وسِيَر الذاكرين، وإن كنت تريد إتقان أدائك للصلوات فاقرأ عن أجر الصلاة وكيفية الخشوع في الصلاة وتاريخ وسير المصلين الذي كانوا يعتمدونها كعمادٍ لا يستقيم لهم عملٌ بدونها، انظر كيف كانت الصلاة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام والتابعين والفاتحين والعظماء في تاريخ الإسلام، ها قد وضعتَ يدك الآن على سرٍّ من أسرار النجاح والفوز.

ثم اعلم أن الأغاني والموسيقى عدوٌّ لدودٌ للذكر، لن تستطيع أن تنجح في ترسيخ هذه العبادة في قلبك وجوارحك حتى تتخلص من كل ما يسمى غناءً وموسيقى وإن كنت ممن يدمن هذا النوع من اللهو في سابق عهدك فاستبدله بالأناشيد الإسلامية التي تخلو من الموسيقى والتي ستملأ فراغًا اعتدْتَ أن تملأَه بما يضرُّك ولا ينفعك، بما يلهيك ولا ينجيك، قم وتخلَّص من كل شريطٍ أو ملفٍ للأغاني على أجهزتك السمعية والبصرية، إياك والتردد، هذه خطوةٌ تحتاج لحزمٍ كما كنت حازمًا أولَ ما قررت أن تصلي ولو كره الجميع ممن يقاسمك الحياة تحت سقفٍ واحد، تذكَّر كيف كان الصحابة حازمين مع ما يهدد إيمانهم وعباداتهم، تذكر كيف أُريقت الخمر في الشوارع وهم قومٌ قد جُبلوا على شُربها في الجاهلية، لم تأخذهم لحظة وهنٍ واحدةٌ، هكذا يفعل الإيمان بقلب المُقبِل.

وللإقبال متعةٌ وللفرار إلى الله أثرٌ، ولن ترى توفيقًا في عبادتك والتزامك إن لم تقرِنْه بالاستعانة بالله في كل حركاتك وسكناتك، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أعظِمْ التوكل على الله، أحســن الظن بخالقك، تدبَّر في ملكوت الســماوات والأرض، تفكَّر بعمقٍ، ما خلق الله هذا باطلًا! اِصــبر على تكاليف الطريق المســتقيم وهجران الملذات الدَّنِيّة، سبِّح بحمد ربك، استغفره في كل حين، صلّ على النبي الكريم، ادعُه تضرعًا وخفيةً واسجد واقترب، فما زال أمامَك مشوارٌ يستحق ذلك.

الفصل الرابع: قلبي والقرآن



لقد أصبح للسجود طعمٌ مختلفٌ مذ قررتَ أن تجاهد نفسك للخشوع في صلاتك، مذ أصبحت مداومًا على الأذكار مبتعدًا عن مزامير الشيطان، أصبحَتْ نفسك تَتَنَقَّى من براثنِ جاهليةٍ كادت أن تُهلكك، وتحرمك أجمل شيءٍ في الوجود، إنها نعمة العبادة التي خُلقنا لأجلها، متعة الإنابة والقربى من خالقك، لا شك أن نفسك تلومك، لمَ حرمتني كل هذا الجمال كل هذه الروعة في دنيا الإنسان...!

قليلٌ من العتب سيجعلك تحرِص على البذل، نعم فقد قصَّرت من قبلُ ولكنْ هيهات أن يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين، لن أكون ضحية غفلتي مرةً أخرى، هكذا جدِّد العهد وانظر إلى الغد، وحدد أهدافك التي تتوق لها نفسٌ مؤمنةٌ بدأت تتدرج في سلم التحرر والارتقاء!

أصبحتَ تشعر بنوعٍ من التحليق، وربما يدفعك هذا للبكاء والندم على ما فات، كل هذا ينظف الله به قلبك ويُهيِّئُه لما هو آتٍ...

لقد أصبحتَ اليوم مسلمًا يصلي ويداوم على الذكر، ومن الذكر أيضًا تلاوة القرآن، فهي بلسمٌ للروح، قد لا تدرك عظمته في بداية الالتزام ولكنْ لا شك بالمداومة على وردٍ يوميٍ وتدبرٍ وتفكيرٍ، ستتعلق روحك بآخِر كتابٍ سماويٍ لم يَمَسَّهُ تحريفٌ ولا تزييفٌ، أنزلَه الملَكُ جبريلُ بأمرٍ من رب العالمين، على سيد الخلق أجمعين صلواتُ ربي وسلامُه عليه، إنه كتاب القرآن العظيم.

والتزام وِرد القرآن يوميًا يُفضَّل أن تختار له الوقت الذي تكون فيه متحررًا من أي ارتباطٍ يقطع عليك خشوعك، فأنت حين تقبِل على القرآن، أقبل بكُلّك لا ببعضك، أعطِه كل ما فيك يُعطِك أكثر مما تنتظر، إن القرآن كريمٌ وفيٌّ... تخيَّل! كلما اهتمَمْتَ به زادك من الخير والبصيرة والحكمة ما لم تكن تعرفه، وكلما اقتربتَ أكثر من صفحاته كلما أثَّر في روحك وكلماتك... وكلما غِبت عنه ثم رجَعتَ إليه وجدتَه ينتظرك، كريمًا جوادًا لا ينفَكُّ يخلُق في نفسك شعور التقصير والشوق.

ولهذا فإن الاجتهاد في حفظ بعض سور القرآن في بداية الطريق سيكون له تأثيرٌ قويٌ في نفسِ الملتزمِ الجديد خاصةً إن حرص على الصلاة بجديد حفظه فإنه سيشعر بإنجازه ويتعلق أكثرَ بالصلاة بحفظه الجديد.

ونصيحتي لمن أراد أن يحفظ بعض سور القرآن، أن يجعل نيته الأولى حفظ كتاب الله كله، وذلك أن لكل امرئٍ ما نوى، وأن الإنسان إن قُبض وكانت نيته خيرًا فإن الله سيجزيه على قدْرِ نِيَّته، فاجعل همتك عاليةً وأمانيَك فوق السَحاب، لا ترضَ بالأهداف البسيطة، لأنك قد تنال ما تحسَبه عصيًا، بكرم الله ومعيته. قال ابن المبارك رحمه الله:" ربَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمه النية، وربَّ عملٍ كبيرٍ تصغِّره النية".

وحين تنوي حفظ كتاب الله ابدأ حالًا من سورة البقرة، بضع آياتٍ تحفظها في كل وردٍ... داوم على ترتيلها ولو استغرق منك حفظ أول جزءٍ الوقت الطويل، فأنت في متعةٍ وامتنانٍ، لأن الروح تتزود نور كل آيةٍ جديدةٍ تترسخ في جدار القلب، وكيف يمكن أن يكون القلب الذي أناره ذكر الله من الداخل، لابد أنه سراجٌ منيرٌ، أو بدرٌ أو شمسٌ!

لا تنظر إلى عدد الصفحات المتبقية أمامَك في كتاب الله، بل انظر كم أفدْتَ مما حفظتَه من آيات الله، تذكَّر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفظ البقرة في 12 سنةً وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حفظها في ثماني سنينٍ، ليس إلا لحرصهما على العمل بها وهما الصحابيان الجليلان، وأنت لست بحاجةٍ أن تُسرِع في حفظك المهم أن تثبِّت حفظك وتستمر فيه ولو بمتوسط بضع آياتٍ في اليوم أو حتى الأسبوع على أقصى تقديرٍ، احفظْ ورتِّل وصلِّ به في صلواتك ستدرك أن للقرآن المحفوظ وقعَ خشوعٍ يزداد بصاحبه تحليقًا...

وتأمل معي لو أنك أنهيت البقرة فقد حفِظْتَ أطول سورةٍ في كتاب الله، ولو أنك أردفتَها بآلِ عمرانَ فها قد جِزتَ أجر الزهراوين، وما أدراك ما الزهراوان، كالغمامتين تُظلان صاحبهما يوم القيامة، وأجرهما عند الله كبير... والأيام تسير والآيات تترسخ والحفظ يزداد وأنت تتألق حتى يتراءى لك تاج الوقار!

ثم تأمَّل معِيَ هذه الأحاديث: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: " إنّ الذي ليس في جوفه شيءٌ من القرآن... كالبيت الخَرِب"[٤].

وعنه أيضًـا صـلى الله عليه وسـلم: " يقال لصـاحب القرآن: اقرأْ وارتقِ ورتّلْ كما كنت ترتِّل في الدنيا فإنّ منزلتَك عند آخر آيةٍ تقرأُها".[٥]

وعنه أيضًا صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٍ علّمه الله القرآن... فهو يتلوه آناءَ الليل وآناء النهار فسـمعه جارٌ له قال: يا ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي فلانٌ فعملت مثل ما يعمل، ورجلٍ آتاه الله مالًا... فهو يُهلكه في الحق فقال رجلٌ يا ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي فلانٌ فعملت مثل ما يعمل".[٦]

فهل علمت الآن مكانة هذا القرآن...!

وبما أنك في مرحلة تعلق القلب بالقرآن، عليك أن تنظر في تفسـيرات العلماء لبعض آيات الله... دعْ فؤادك يرقّ ودمعك ينسـاب... دع للتفسـير نصـيبًا من وقتك وأنصـت لمحاضرات الراسخين في العلم تسوق لك من حِكَم هذا المَعين.

وقد تتعثر في طريقك فتمضـي أيامٌ لا تقرأ فيها وردك من القرآن فلا تجعلْه سـببًا للإحباط والتراجع وخمول الـذكر، بل احرِص في اليوم الـذي لم تقرأ وِردك فيـه أن تسـتمع للقرآن راكبًا أو مسـتلقيًا أو قبل نومك، اجعل همَّتك تدارُكَ ما فاتك في أقرب فرصةٍ، اجعله أمرًا حياتيًا أن يصل القرآن قلبك قراءةً أو سماعًا في كل يومٍ.

---

[٤] أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح.

[٥] قال الترمذي: حسن صحيح.

[٦] أخرجه البخاري ومسلم.

قال الإمام الشاطبي في " حِرز الأماني":

روى القلبَ ذكرُ الله فاستسقِ مقبلًا ولا تعدُ روض الذاكرين فتمحلا
وآثِر عن الآثار مثراة عذبه وما مثله للعبد حصنًا وموئلًا
ومن شغل القرآن عنه لسانه ينَلْ خير أجر الذاكرين مكمّلا
وما أفضل الأعمال إلا افتتاحه مع الختم حِلًّا وارتحالا موصِّلا

إنك اليوم في مرحلة التزود مرحلة التعبئة والتنوير، لهذا ليكن في برنامجك اليومي قسطٌ وافٍ من التعلُّم، تعلَّم كل ما يحيط بعباداتك، من عِلم الصلاة والذكر والقرآن ليقِرَّ في قلبك ويترسخ رسوخَ الجبال... فلو كنت ستفتح بابًا وخلف هذا الباب جنةٌ ساحرةٌ فيحاءُ، هل كنت ستعلم ما فيها لولا أنك فتحت الباب بيدك، إذًا خذ بجميع الأسباب التي توصلك لهذا الباب ثم افتحه وانظر سترى أنك حِزتَ خير الدنيا وزاد الآخرة.

وقد قال الله سبحانه وتعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) [٧] كلا لا يمكن أن تكون أنت الذي جهِلَ في غفلةٍ هو أنت الذي علم في إقبالٍ، إن للمعرفة سريانًا في جسد الإنسان يُحيي به الأمل ويُجدد الهمم ويَخلق حالة استقرارٍ واتزانٍ، هذا ما يفعله العلم بالإنسان، فكيف إن كان علمًا قُرِن بخشية الخالق والإقبال عليه، إنه الفوز بحق.

قال الإمام أحمد رحمه الله:" إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحبُّ فدُمْ له على ما يُحبُّ ."فهي متلازمةٌ، هي معادلةٌ، كلما داومتَ على ما يحبه الله كلما تيسرت لك الطريق وسهُلت وأصبحت حياتك منتظمةً متزنةً زاخرةً تكسوها الرحمة الإلهية ومعية الربّ.

[٧] الزمر ٩.

بل ستبدأ الهموم تتلاشى أمامك، ذلك أن انشغالك بالطاعة والتعلم يصرف عنك الانشغال بهموم الدنيا الدَّنِية، وقد قال بعض السلف:" إذا قصَّر العبد في العمل ابتلاه الله بالهموم".

وإن كنت اليوم شابًا فغدًا شيخٌ، وما يدريك أنك سترحل عن دنيانا قبل أن تصل تلك المرحلة! فالعمر لا نقدِّره إلا بالعمل الصالح، بل كل أعمارنا لا تساوي إلا مثقال ما حرصنا عليه من الطاعة والبذل والمسابقة في سبيل رضا الخالق، قال يحي بن معين-رحمه الله-:

وإذا افتقرت إلى الذّخائر لم تجد... ذخرًا يكون كصالح الأعمال

ومن كان في مرحلةٍ متقدمةٍ من العمر فالأحرى به أن يعجِّل الالتزام ليستدرك ما فاته، كما على الشاب أن يعجل الالتزام لأنه لا يضمن كم سيعيش مستقبلًا، قال النيسابوري في تفسير سورة العصر من غرائب القرآن: "لا شيءَ أنفسُ من العمر ".

وعن الحسن-رحمه الله-قال:" يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهنّ قطّ: يوم تبيت مع أهل القبور ولم تَبِتْ ليلةً قبلها، وليلة صبيحتها يوم القيامة ويوم يأتيك البشير من الله تعالى، إمّا بالجنّة أو النّار، ويوم تعطى كتابك إما بيمينك وإمّا بشمالك".

قد وصل بنا المسير لإنجازاتٍ حقيقيةٍ، إقامة الصلاة ومداومة الذكر وإحياء القلب بالقرآن! فمن تعلمها وداوم عليها، كانت زاد القلب الذي يفيض به الإيمان في ثنايا المقبل وجوانحه، ليذوق نعيم الآخرة وهو ما زال في دنياه كما قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله:"ليس في الدنيا نعيمٌ يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان ".

وقال الحسن البصري رحمه الله: " تفقَّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي قراءة القرآن، فإن وجدتم، وإلاّ فاعلموا أنَّ البابَ مغلقٌ ".ومن وجده مغلقًا عليه أن يستمر في الطَرْق حتى يفتح له، وأما من وجده مفتوحًا كان من (الَّذِينَ

يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[٨].

وبهذا النور الذي استقر في القلب... هل ترانا وصلنا لمرحلةٍ لا نخشى على أنفسنا التراجع! هذا ما ستكشفه لنا الورقات التالية من صفحات دفتر الالتزام.

فإن الشيطان لا يمَلُّ من حربنا، أفنكسل عن حفظ أنفُسِنا منه، ولا شك أن ما ينتظرنا لا يقل أهميةً عما سبق!

[٨] آل عمران ١٩١

الفصل الخامس: مظهر الملتزم، منحة أم محنة؟!



قد خشع قلبك فلزامًا ستخشع جوارحك، ستنفِر من مظهرك الذي أَلِفْتَه في غفلتك وستتوق للظهور بمظهر التقيِّ الملتزم، إن كنتَ رجلًا أو امرأةً فلا شك أن اللباس المحتشم خطوةٌ محوريةٌ تحتاج أن تخطوَها في طريق الالتزام، ستطلبها روحك التي بدأت تحيا ببلسم الإيمان، ولا تحسَبْها خطوةً قليلة الأهمية، بل مظهرك من أَولى أولويات الشيطان في حربه للالتزام والعبادة والإقبال، كيف لا وقد كان هدف إبليس أولَ ما خلق الله أبانا آدمَ وأمَّنا حواءَ، نزع ثيابهما عنهما وإظهار سوآتهما، ليتسبب في خروجهما من الجنة، وما زال هذا دأْبَه مع كل غافلٍ وكافرٍ، نشر العُرِي والسفور والمجون، وهذا التركيز الأول من الشيطان ليس من فراغ، فلأنه يعلم بأن تعويد النفس على العري والسفور، هو استدراجٌ للسقوط في مستنقع الشهوات بقتل الحشمة والحياء وهو التدرج لإخماد نور الإيمان، فالحياء شعبةٌ من شُعَب الإيمان! هذا لندرك أن تغيير المظهر من أكثر العقبات التي سيتصدى بها لك الشيطان المتربص!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" الولادة نوعان أحدهما: هذه المعروفة، والثانية: ولادة القلب والروح وخروجهما من مشيمة النفْس، وظلمة الطبع... وهذه الولادة كانت بسبب الرسول كان كالأب للمؤمنين، وقد قرأ أُبَيٌّ بن كعبٍ-رضي الله عنه- (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبٌ لهم)، فرسول الله صلى الله عليه وسلم بلَّغ رسالة الإسلام للعالمين فكان كالأب الذي وُلِدنا به من جديدٍ، وخرجنا به من الظلام إلى النور، وبالإسلام الذي التزمتَه بالأمس، كانت الولادة لهذا القلب ولهذه الروح المؤمنة، إنه الإسلام الذي يدعو للباس الحشمة للباس التقوى، لتبحر بقوةٍ ونجاحٍ في حياة الإيمان والسعادة والرقي!

لهذا فمن الطبيعي جدًا أن تحب مظهر الالتزام وأن تفرح به نفسك لأنه فطريٌّ، وإن رأيت بعض التردد فاعلم أنك بحاجة لمعالجةٍ وإصلاحٍ وتزوَّدْ بالتقوى والتذكرة.

سمع رجلٌ حديثًا من الإمام مالكٍ فقال:" هذا الحديث ينبغي أن يُكتَب بماء الذهب" ، فقال له مالكٌ:" بل ينبغي أن يُكتب بماء العمل ."هو العمل دلالة الصدق، هو العمل توقيع الرضا والقبول.

لهذا فالتردد في الإقبال على الالتزام مظهرًا إن قابلَه نفورٌ في النفس فهذا لأن القلب ما زال بحاجة لبعض العلاج والتذكرة وترسيخ مفاهيم الإيمان والعبودية لله، وقد يكون من تلبيسات إبليس الذي سيعظِّم الأمر ويهوِّل الفعل ويجعل منه الحرب فيخوفِّك ويزرع التردد فيك حتى لا تقبل عليه إقبال المشتاق، فلا تَخَفْ من شيطانٍ عدوٍ مبينٍ، بل تذكَّر أن خشية الله أعظم وأن طاعته ستهوِّن عليك كل خوفٍ!

وممن يخوفك؟! وبمن يخوفك؟! بمحيطٍ غافلٍ، وقومٍ غرقى في جهالاتٍ وظلمٍ للنفس؟! أتخاف من عصى ربه ولا تخاف أن تعصيَ أنت ربك!

وتذكر" أن العباد آلةٌ؛ فانظر إلى الذي سلَّطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تسترِيح من الهم والغم".

إنك في الواقع أمام حالتين، حالة القدرة وانعدام القدرة على الظهور بمظهر الملتزم.

الحالة الأولى: أن يكون محيطك لا يمنع مظهر الالتزام ولكن قد يسخر منه من اعتاد على غفلتك، فهذه علاجها العزم والحزم والإقبال بقوةٍ لا ترددٍ، كما كان حالك مع أداء الصلاة، وستكون خطوةً سهلةً لأنك نجحتَ سابقًا في فرض نفسك في إقامة الصلاة وفروض الإسلام، قد عوَّدْتَهم أن يحترموا رغبتك في التغيير حين قررتَ أن تكون ملتزمًا بأركان دينك الحنيف.

ولا أشك لحظةً واحدةً أن الصَّدْع بمظهر الملتزم سيكون المرحلة الأخيرة في كسر حاجز التحدي بينك وبين أهلك ومحيطك الرافض لالتزامك، فلم يعُد بعدها من تحدٍ يُنَغِّصون عليك حياتك به، بل سيكون الحسمُ ونهايةُ الجدال أمام أيِّ تطورٍ يلحظونه في مسيرة التزامك مستقبلًا. وكما يقال هي الصدمة الأخيرة التي لا صدمة بعدها،

والصدمة تورِث الوهْن والخضوع، وهذا سيصاب به من آثر رفض التزامك والسخرية منك. أما في وسطٍ يرحب بالالتزام فلا مشكلةَ البتةَ لديك وفي المحصلة فإن ظهور التزامك في شكلك إنما هو منحةٌ ستذوق معها حلاوة الاستقامة والطاعة والتقوى، ستعرف الاحترام والمهابة التي ستتوّج ثباتك على الالتزام.

والحالة الثانية: أن تكون في وسطٍ يحارب الالتزام بقوة السلطان ويتربص بالملتزمين الغرباء بل ويسلِّط عليهم شرار الناس ممن لا يرقُب في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمةً، وفي هذه الحالة أنت في حال ضرورةٍ، وللضرورة أحكامٌ، أنت في محنةٍ، فتسدد وتقارب وتلتزم بالحد الأدنى الذي تُداري فيه القوم حتى لا ينالك منهم أذًى، وإن كان الأذى أحيانًا لا مناصَ منه فحينها ستكون مرحلةُ ابتلاءٍ لصدق إيمانك، والله قد رفع عنك الحرجَ كما رفعه عن عمار بن ياسرٍ رضي الله عنه، والحمد لله على حكمة الإسلام التي تعطيك الخيارات المناسبة لوضعك وقوتك فتتصرف مع عقبات الالتزام بما تقدر عليه وبمرونةٍ لا تغيّر من درجات إيمانك. ولهذا فجميلٌ أن تطالع قصص الالتزام الأول بالإسلام من الصحابة لتتعرف على حجم الأذى الذي لاقَوه في سبيل الإيمان بالله ربًّا وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا. وتذكَّر أن تمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين، وشر الشرين ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. وما بعد المحنة إلا منحةٌ!

أما التردد مع القدرة على مظهر الالتزام، فهو من الأمراض التي وجب عليك علاجها، والتي تدل على ضَعفٍ في الإرادة وضعفٍ في استيعاب الحكمة من الاستقامة، فإن لم تعالجه بالرجوع إلى حقيقة العبودية لله فهي محنةٌ حقيقيةٌ، وإن عالجتَها انقلبتْ إلى منحةٍ حقيقيةٍ.

وحين نتحدث عن الالتزام في المظهر فلابد أن نوضِح أمرًا كثيرًا ما يُساء فهمه من بعض الناس، فالالتزام لا يعني عبوس الوجه وتجهُّم الملامح والنظرة العدائية!!! ولا يعني لباسًا منفِّرًا ومظهرًا غير مألوفٍ يخلق المسافات بينك وبين من حولك، ويبعدك عن سبل الدعوة والإرشاد، لا يعني الغضب والشدة في الخطاب والغلظة في القول، إننا

نتحدث عما فرضه الشارع الحكيم، وأقرّه أئمة أهل السنة، فالرجل عليه إعفاء لحيته والحرص على لباسٍ لا تظهر معه عورته ولا ينزل تحت الكعبين ولا يصف تفاصيل جسده، في حين المرأة عليها لبس الحجاب الساتر لكل جسدها والذي لا يصفه ولا يكون فتنةً، ومع هذا المظهر التقي، ستكسو الروحَ صفةُ خفض الجناح للمؤمنين، صِفة الذلة للمؤمنين، صِفة المحبة والأُخوَّة في الله لا الاستعلاء والكبر أو الفظاظة والغلظة! ويكفي أن تطَّلِع على شروط اللباس المحتشم للمسلم والمسلمة لتجد أن الإسلام لم يحدد زيًا معينًا، بل هو بابٌ واسعٌ يختلف بأعراف الناس والاختلاف فيه رحمةٌ من الله بعباده وما أعظم الإسلام الذي يحدد الحد الأدنى في الشكليات ويترك لك التصرف فيما لا إشكال فيه.

وما مظهر الالتزام الشكلي إلا بركة الالتزام القلبي، وإلا فلا وزن له إن لم يقترِن بالتزام القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى أعمالِكُمْ، ولا إلى صُوَرِكُمْ، ولكنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكم، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً، إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ألا وهي القَلبُ)[٩].

بالأمس كنتَ تظهر في شكلٍ أبعدَ ما يكون عن الالتزام واليوم قرَّرتَ أن تُعفيَ لحيتك وتلبسَ لباسًا محتشمًا... كذلك أنتِ علمتِ أن الحجاب فرضٌ على كل مسلمةٍ، وعلمتِ أنه بات أمرًا لا مجال للمداهنة فيه، فهو أمر الله فرضه على المسلمة، وكما الصلاة فرضٌ... الحجاب فرضٌ، ولكنكِ كنتِ بالأمس لا تستترين وكنت قد أَلِفْتِ لباس الموضة والخروج بسفورٍ، وتخشَين أن تتابِعَك الأنظار وربما السخريات، هذه كلها من مكر الشيطان، فلا تلقي لها بالًا وامضي في طاعة ربك فلا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

وأعمال البر كلما عظُمت كان الصبر عليها أعظم مما دونها والصبر مع القدرة جهادٌ، بل هو من أفضل الجهاد وإنما أنت في جهادٍ.

---

[٩] رواه البخاري ومسلم.

إن إعفاء اللحية في بلدٍ لا يقمع الحريات الشخصية لهو أمرٌ سهلٌ وتستطيع أن تفرضه بسهولةٍ وأنت مبتسمٌ منبسط الوجه تعكس أساريرك سكينة الإيمان واتزان الملتزم وسعادة المقبل، ولكن إن كنت في وسطٍ يحارب أي مظهرٍ للتدين فأنت مخيرٌ بين حليّن بحسب درجة الأذى التي قد تصلك من هذه الحرب على الإسلام، إما أن تعفيَ لحيتك وتجعلها منسقةً لا تجذب لك الأنظار ككثيرٍ من الشباب الذي يلتحي لمجرد أن يبدو بشكلٍ مختلفٍ وهو بعيدٌ كل البعد عن الالتزام، بل قد يجعل اللحية كضربٍ من ضروب الموضة، وهي مداراةٌ منك إلى حين تأمن الدار، أو أن تتوقف قليلًا عن إعفائها حتى يزول خطر الترصد والبغي والعدوان على مجرد إعفاء لحيةٍ. أما أنتِ أيتها المقبلة بشوقٍ، اعلمي أن الحجاب حِفظُكِ وصونُكِ من كل اعتداءٍ، فالبسيه واصدعي ولا تأخذْكِ في الله لومة لائمٍ، فإنه الشرف أن تصدعي بأمر الله، واعلمي أنها مجرد أيامٍ ثم يتعودون عليكِ ويخضعون لرغبتكِ وينسون تغيُّركِ ويحترمون رقيَّكِ.

قد يتساءل متسائلٌ، لماذا على الرجل المداراة وعلى المرأة الصدع، ذلك لأن لحية الرجل ليست مَجلَبةً للفتنة إنْ ترك إعفاءها لضرورةٍ... وترْكُها لا يتعدى ضرره إلى المسلمين، وأيضًا هو مجبرٌ على الخروج والبحث عن الرزق في كل يومٍ ومن ورائه مسؤولياتٌ وللضرورة أحكامٌ، بينما المرأة إن خرجت سافرةً فهي الفتنة بعينها لشباب المسلمين بل وقد تعدى ضررها لغيرها فضلًا عن نفسها، وقد يحفظها زوجها أو أهلها في البيت فلا تضطرُّ للاحتكاك والتعامل الذي يجلب عليها العدوان للحجاب إلا في حالات الضرورة. وطبعًا هذه حالةٌ خاصةٌ تقتصر على بلدٍ يحارب مظاهر الالتزام محاربةً مبالغًا فيها، وإلا فإن أكثر البلاد لا تمنع مظهر الالتزام أو تتصدى له بالظلم والعدوان لهذا لن يُحرَم أكثر الملتزمين الجدد من الظهور بمظهرهم الجديد.

أما لبس النقاب فهذه مكرمةٌ ودرجةٌ للارتقاء للأمام ويكفي أنه صفةُ تمييزٍ لذوات الخدور وصاحبات الفضل والعلم على مر التاريخ الإسلامي، واسألي مجربةً لتخبرك عن لذة هذا الستر والسر العجيب من أسرار الحرية والتحليق، وبما أنه أمرٌ اختَلَف في

وجوبه العلماء إن لم تكن ثمةَ فتنةٌ، رغم اعتقادي بقوة الأدلة على وجوبه، فأنتِ أمام رحمة الاختلاف إن كنتِ في بلادٍ لا ترى فرْضِيَّته، وجميلٌ أن تطلعي على أدلة الفريقين وتنظري لما تطيب له نفسكِ وتقدرين عليه، مقبلةً بحبٍ لا إكراهٍ والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

ومما لا خلاف فيه أن حجاب المسلمة فرضٌ، ولباسه واجبٌ في مراحل الالتزام، وقد حدَّثَتْني بعض المعتنقات للإسلام حديثًا عن مراحل التزامهن واشتركن جميعًا في نقطة الحجاب الذي كان يُعَد بالنسبة لهن نقطة التحدي الأكبر، والخروج للشارع بلباسٍ لم يعتَدْ عليه الناس، كان بالنسبة لهن المواجهة والتحدي في أقوى صوره، ورغم ذلك قد قبلن التحدي، ولكن تأمَّلي كيف أن الله يسَّرَ لهن هذا الالتزام وهن في أرضٍ لا يرفع فيها أذانٌ ولا يَدِينُ أهلها بدين الإسلام، فتخرج في الشارع معتزةً بحجابها الجديد والتزامها الجديد، أَفَلَيْسَ حريًا بك أن تقبلي أنتِ التي ولدتِ في الإسلام، بأسرعَ منها؟!

بعد هذا التطور والظهور الجديد لدينا مرحلةٌ من التعوُّد وتعويد المحيط، وهي مرحلةٌ ستنقضي بمعية الله ورحمته فكلما كان التوكل فيها على الله عظيمًا والإخلاص فيها متينًا، كلما سهُلت وأثمرت بركاتٍ وتيسيرًا. فامضِ في مسيرتكَ أيها الملتزم وأيتها الملتزمة، قد تعوَّد القوم عليكَ اليوم بمظهركَ التقي، والمسلم الصادق إذا عَبَدَ الله بما شُرِعٍ فتح الله عليه أنوار الهداية في مدةٍ قريبة.

تذكر أن العمل لا يُمدح ولا يُذم لمجرد كونه لذةً، بل إنما يُمدح ما كان لله أطوعَ وللعبد أنفعَ، سواءٌ كان فيه لذةٌ أو مشقةٌ، وها قد علمتَ هذا اليوم إذًا فالتزِم...

الفصل السادس: أصبحتَ داعيةً فهل من صديقٍ؟!



لم يكن الشيطان ليفوِّت مثل هذه الفرصة في ثَنيك عن مسيرتك في الالتزام، ولا شك أنه سيعمل كل ما بوسعه ليخلق في نفسك شعور التراجع أو الخوف أو التردد، وإن لم يفلِح معك ولم يتمكن من ذلك فسيؤلِّب عليك مَنْ حولك وقد يصل الأمر لِأَن يتفرغ أحدهم لمضايقتك والسخرية من مظهر التزامك الجديد ولا يبالي بمروءةٍ أو أدبٍ!

حينها أنت في موقفٍ يتحتم أن تواجهه بحكمةٍ وعقلٍ، أولُه ألا تباليَ بما يقوله ولا تلتفِت لما يَهرِف به، لأنه ليس إلا من ثرثرة الفراغ، ولن يكون حقًّا ما خالف أمر الله، ثم استعن بقاعدة (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ).[١٠]

ولْتستغِل المرحلة في تقوية إيمانك وأنت يحدوك قول ابن تيمية رحمه الله:" من كان إيمانه أقوى من غيره، كان جنده من الملائكة أقوى ."فأقبِل أكثر وتقرب أكثر وتفكر أكثر وألِح بالدعاء أكثر أن يوفقك الله ويسدد خطاك ويذيقك من لذة الإيمان ما يُنسيك عقبات الدنيا.

ثم انتهز الفرصة للعمل على دعوة هذا المرء وهدايته، أهدِه كتابًا يتحدث عن واجب الالتزام، عن إعفاء اللحية أو لبس الحجاب، أرسل له رسائلَ دعويةً بطريقتك، استفِدْ من حالة الثوران التي هو فيها والتي ليست إلا بدافع النقص أو الجهل، بشعورٍ بالذنب إنه يود منك أن تبقى في مرتبته! فكن كريم النفس وأقبل بهدوءٍ وإشفاقٍ تنير له ظلمة قلبه وتبسِّط له المفاهيم وتزرع في نفسه بذرةً من عزة المسلم!

قد يكون شخصًا أكبر مكانةً في أهلك، كوالدك أو والدتك، فعامله بالتي هي أحسن وإياك أن تغضبه ولكن تلطَّف معه وبيّن له وجهة نظرك بالقناعة التي ترسخت في قرارة قلبك، بالحكمة والموعظة الحسنة، وعادةً ما يتفق الأهل في الخوف عليك من تَبِعات هذا الالتزام في بلدٍ يحارب أي مظهرٍ من مظاهره، فذكِّرهم بمعية الله وبأن الله مولى الذين آمنوا.

---

[١٠] الأعراف ١٩٩.

إنها معالجةٌ نفسيةٌ... ستصبح داعيةً قبل أن تقرر ذلك، ستجد أن الدفاع عن حرياتك أصبح بمنزلة نشرٍ للدعوة في وسطك وهي التجربة الأولى لك كداعيةٍ للخير مبتدئٍ، فكُن على قدرٍ من النجاح قد تجني معه الكثير من الأجر، فقد رأينا من التزم وما لبث حتى التزمتْ أسرته بالكامل، وقد يكون الأمر صعبًا في بعض الحالات ولكن لا أقل من المحاولة. قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) .[١١]

وقد قال بعض أهل العلم:" لو فُرِضَ أنا عَلِمنا أن الناس لا يتركون المنكر، ولا يعترفون بأنه منكرٌ: لم يكن ذلك مانعًا من إبلاغ الرسالة وبيان العلم".

وهل يحزِنك أن يستهزؤوا بك؟! أو لم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر عليه ما هو أعظم من الاستهزاء، ولكنه صبر! فما بالنا لا نصبر كما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر الصحابة رضي الله عنهم من بعده ونحن نحمل ذات الدين بين ضلوعنا، ونسبح بحمد ربٍّ واحدٍ! إنها مسألة أخذٍ للكتاب بقوةٍ وصبرٍ ويقينٍ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " قد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثرَ من تسعين موضعًا، وقرنه بالصلاة في قوله:} وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ] {البقرة: ٤٥]، وجعل الإمامةَ في الدين موروثةً عن الصبر واليقين بقوله: }وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ] {السجدة: ٢٤]، فإن الدِّين كلَّه علمٌ بالحق وعملٌ به، والعمل به لا بد فيه من الصبر؛ بل وطلبُ علمه يحتاج إلى صبرٍ".

ثم المخالطة التي تحرمك متعة هذا الالتزام، اهجرها، ابتعد عنها، لا تقترب مما ينفِر من التزامك أو يحاربه، فلا ترتَدْ ذات الأماكن التي كنت ترتادها من قبلُ وكانت سببًا في

---

[١١] النحل ١٢٥.

غفلتك، حاول أن تتجنب المشي في أماكنَ لا يظهر فيها ملتزمٌ، إنها أماكن يسخرون فيها بكل تأكيدٍ من شكلك الجديد فلا تعطِهم الفرصة على طبقٍ من ذهبٍ.

حين نتغير ونرتقي لا بُدَّ أن نحفظ هذا التغيير وهذا الارتقاء من السفهاء بالابتعاد عنهم ومجانبتهم وإن لزِم الأمر فحدِّد علاقاتك من جديد، كل من يسخر منك فليس أهلًا لصحبتك، وليس لديك الوقت لتعطِّل مسيرتك بسبب غفلته، إن صَاحَبَكَ مُحترِمًا رغباتك وقناعاتك فها قد قبلت به وسعَيت في هدايته، ولكن إن أصرَّ على محاربتك وإلهائك عن مطلبك وغايتك، فابتعد عنه لعله يتعلم منك أن في الحياة ما هو أسمى وأثمن من مجرد صحبةٍ ساخرةٍ.

واجعل نُصبَ عينيك الهجر الجميل: هو هجرٌ بلا أذًى، والصفح الجميل: صفحٌ بلا معاتبةٍ، والصبر الجميل: صبرٌ بغير شكوًى إلى المخلوق.

وتذكَّر قول الله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ). [١٢]بهذا التصنيف وصف الله عباده، فأيَّ العباد تتوق همتُك أن تكون؟!

ثم إياك وتعدي حدود التعامل مع الجنس الآخر، رجلًا كنتَ أو امرأةً فلا بد من التزام حدود الحديث والتعامل فيما سمح به الشرع لا غير، وإلا فإنه بابٌ آخر للفتنة والتراجع وجب إيصاده.

وابحث عما يُعينك في مسيرتك، عن ملتزمٍ جديدٍ أو قديمٍ أو من يتمتع بخُلقٍ وصدقٍ في النصح، كن مُحسنًا في اختيار رفقتك فإن لم توفَّقْ ولم تجِدْ من يقاسِمُك هذه القناعات، ابحث في الشبكة العنكبوتية عمن يبحث، مِثلَك، عن رفيقٍ... ولكن بحرصٍ

---

[١٢] فاطر ٣٢.

شـديدٍ فليس دائمًا الظاهرُ كالباطنِ لمن بدا أنهم اسـتوحشـوا الطريق وبات الإنترنت صديقهم الوحيد.

فالإنترنت صـديقٌ يقدم لي المحاضـرات التي أريد... يبحث لي عن المقالات التي أحتاج، يبسُط لي الدردشات مع أهل الفضل وأصحاب الهمم... يفتح لي الآفاق للتعلم والعمل، يحيطني علمًا بأخبار أمتي وهموم المسـلمين لأكون على درايةٍ بما يدور من حولي، إنه بحرٌ زاخرٌ إن أبحرنا فيه بتقوًى وهمةٍ عاليةٍ جنينا منه خيرًا كثيرًا وصَـيدًا وفيرًا، وإنه بحقٍ صـحبةٌ ثمينةٌ فأحسِـن اسـتعماله والاقتداء بالناجحين فيه وإياك وتلبيسـات إبليس الذي سـيحاول أن يعرِّج بك في مسـتنقعات الفسـاد والضـياع فينزل بك لمراتب الردى والانحدار ويؤول بك الحال إلى الندم الشديد لاتباعه والاغترار به (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّـلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّـيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ).[١٣]

جميلٌ أن تتعرف على أصـحاب الهمم... الأصـدقاء الجدد... من يحمل ذات همك وهدفك وربما تجربتك، من لجأ إلى الإنترنت يتزود من خيره ويسترزق الأجر من الدعوة عليه، بل قد تجد لنفسـك كل الصـحبة وأبواب العمل على الإنترنت إن ضـاقت عليك الأرض بما رحُبت.

ضـع قائمةً بأفضـل المواقع والحسـابات التي تسـتحق المتابعة، كن على اطلاعٍ جيدٍ بكل ما يغذي فضـولك في بحر الاسـتقامة والالتزام، اسـتمع واقرأ لتجارب الغير فإنها تعزز الثقة لديك وتُلهب فيك الأفكار وربما تُكسِبك فرصًا أخرى لمزيدٍ من الارتقاء.

---

[١٣] البقرة ٢٠٨.

إن الصحبة الصالحة ومرافقة الهمم الصاعدة والتسابق في الخيرات والاقتداء بالنماذج الناجحة وتحديد الأهداف السامقة كل هذا يشكِّل الوسط الجديد الذي عليك أن تضع نفسك فيه وتنتشلها من كل ما يُنزِلها للقاع ويهوي بها في مهبات الضياع.

قال شيخ الإسلام:" الناس كأسراب القَطا(طيور)، مجبولون على تشبُّه بعضِهم ببعضٍ " فاختر من تُصاحِب فإنك حتمًا ستأخذ منه ويأخذ منك.

ولا شك أن القيام على الطاعة سيكون أسهل مع رفقةٍ صالحةٍ فقد قال الله تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)[١٤].

وإن عثرتَ على صحبةٍ صالحةٍ، تعينك على الطريق فهذا فضلٌ من الله عظيمٌ، وإلا فأنت الملتزم المجاهد المجتهد، من أدرك نعمة الله عليه فشكر وأَخْبَتَ، حين علم أن الدنيا يعطيها الله للكافر والمؤمن على حدٍّ سواءٍ، والبَر والفاجر والمنافق بلا اختلافٍ، لكن الدين لا يعطيه إلا من يحبه قال صلى الله عليه وسلم:(إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب، فإذا أحب الله عبدًا، أعطاه الإيمان)[١٥] فإن أُعطيتَه فاحفظْه بالشكر والإخلاص، بالصبر والاجتهاد، بالامتنان والدعاء.

وإن قلت ما زال أمامي الكثير لأتعلمه فاعلم أن العلم بحرٌ لا ساحل له وكذلك يقول العلامة في عصره ومن ذاع صيته في كتابة العلم، إذًا فارتشِف واستزِد ولا تَكِلَّ ولا تمَلَّ. إنما هي نعمةٌ من الله يمُن بها على من يشاء من عباده... فإن رأيت في نفسك نَهَمًا لطلب

---

[١٤] الكهف ٢٨.

[١٥] أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٥)

العلم، فـامضِ على بركـة الله لعـل الله يفتح عليـك آفـاقًـا وآمـالًا، وإن رأيت هواك في الدعوة لله، وأشـفقتَ على من تخلَّف عن هذا المركَب الميمون، فخُض غمار الدعوة وترفَّقْ و لا تنطلق فيها مندفعًا بحماسـةٍ، بل متأنيًا بعلمٍ وبصيرةٍ، لأن الحماسـة عمرُها محدودٌ والأناة تدوم بطولٍ...

ثم تذكَّر هذه القاعدة المفيدة: قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه " الأذكار " :"اعلم أن فضيلة الذكر غيرُ منحصرةٍ في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها، بل كلُّ عاملٍ للّه تعالى بطاعةٍ فهو ذاكرٌ للّه تعالى، كذا قاله سـعيدُ بن جُبيرٍ رضـي اللّه عنه وغيرُه من العلماء، وقال عطاءٌ رحمه اللّه: مجالسُ الذِّكر هي مجالسُ الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيعُ وتصلّي وتصومُ وتنكحُ وتطلّق وتحجّ، وأشباه هذا".

ففضلًا عن الزاد الذي عليك أن تحصّله في هذه المسيرة، من العِلم الفرض الذي عليك معرفته وقد تُعلِّمه لمن حولك وتكسـب الأجر بتبليغ الآية والحديث وبعض الفقه، هناك المعاملات في مجالات الحياة، والاستقامة والإحسان من خلالها.

لقد دخلت مضـمار مسـابقةٍ واسـعًا، فيه الفرص تتوالى وتتكرر، فكن ذا الأيدي، كن الأواب، كن الذي لا يحمل همًّا إلا الفوز بأكبر رصـيد حسـناتٍ، والله لا يضـيع أجر المحسنين والله يضاعف لمن يشاء.

قال ابنُ القيّم: "الصّـادق مطلوبُه رضى ربه، وتنفيذ أوامره، وتَتَبُّع محابِّه، فهو متقلّبٌ فيها، يسـير معها أينما توجهت ركائبها، ويسـتقل معها أينما اسـتقلت مضـاربها! فبينا هو في صلاةٍ، إذ رأيتَه في ذكرٍ ثم في غزوٍ ثم في حجٍ ثم في إحسـانٍ للخَلق بالتّعليم وغيره من أنواع المنافع".

وقال شـيخ الإسـلام ابن تيمية:" من تعلَّم العلم الذي بعث الله به رسـله، وعلَّمه لوجه الله كان صِـدِّيقًا "تأمل معي مرتبة صِدِّيق! إنها المرتبة الثانية مباشـرةً بعد مرتبة الأنبياء وهذا طريقٌ لنيل شرفها، أفلا تستحق المثابرة!

وفي الأخير، فإن الإنســان إذا كان مقيمًا على طاعة الله باطنًا وظاهرًا؛ كان في نعيم الإيمان والعلم، واردًا عليه من جهاته، وهو في جنة الدنيا كما وصـف ذلك ابن تيمية رحمه الله.

فمـا أجمـل الترقى فى سـلم الالتزام ومـا أجمـل الاهتمام بمعالى الأمور والترفع عن سـفاسـفها، ومـا أجمـل حيـاة الاسـتقـامة وما أبلغ معانيها، رزقك الله صـحبةً صـالحةً وأقر عينك بمعونةٍ وثباتٍ.

الفصل السابع: الصحبة عامل نجاحٍ لا فشلٍ



كونَ الصحبة من أهم أسباب الانحراف أو الالتزام فقد ارتأيتُ تخصيص هذه الصفحات لتسليط الضوء على أهمية التخلص من صحبة السوء والحفاظ على صحبة الصالحين، كيف يمكننا أن نجعل الصحبة عامل نجاحٍ لا عامل فشلٍ وتخبطٍ وعبثٍ وتيهٍ.

يشتكي أكثر الملتزمين من عَلاقاتٍ قديمةٍ لا يمكنهم التخلص منها بسهولةٍ لأنها رَبِيَتْ معهم... تعلقتْ بهم ومع الأسف كانت شريكةً لهم في الغفلة والبعد عن طريق الالتزام، بل قد تكون السبب الأول في انحراف المرء وانحداره في قاعٍ يصعب عليه الخلاص منه، لقوة تأثير هذه الشخصيات سلبًا فيه ولقدرتها على التغلغل في نفسه فتحرفها كما تشاء وتثبطها المدةَ التي تشاء، تُهوّن في العيون الذنب وتعمل على تقسية القلب وهي مع الأسف تعيث في الأرض فسادًا باسم الصداقة والصحبة القديمة...

وإني أدعوك لتَدَبُّر قول الله تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا)، [١٦]

لتنظرَ بنفسك كيف يجني عليك الصديقُ الفاسدُ الهلاكَ وخسارة الدنيا والآخرة، كيف أن الله حذرنا من صحبةٍ لم تكن لله ولم تأخذ بيدنا إلى طريق الله... في حين بسَط لنا وصفًا رائعًا للصاحب التقي النقي الصالح الذي يعيننا على تكاليف الثبات بل وحثّنا على إيجاده والحفاظ عليه فقال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ

[١٦] الفرقان (٢٧-٢٩)

الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [١٧] إن الأمر في هذه الآية شديد الوضوح، الالتزام بصحبة الأخيار ونبذ أي صحبةٍ مهلكةٍ لا تعينك على طريق الله.

لا تقل لي أنك تفتقد الحزم اللازم للابتعاد عن صديقٍ قديمٍ فاسدٍ! إن ما ترنو إليه لا يمكن أن يُباع بثمنٍ بخسٍ، إن ساعات اللهو والضحك والسخرية التي اعتدتها مع ذلك الصاحب الغافل، قد أدَّت بقلبك للقسوة، ثم قد حرمتْكَ لذة العبادة والإنابة ووصال السماء! فهل تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ؟! إن لم تحزِم أمرك اليوم فلن تحزمه أبدًا، وأنت الآن أمام خيارين تُثبِت بهما قوة شخصيتك وصدق عزمك ونيتك، إما أن تواجه هذا الصاحب بقوةٍ وتدعوَه لطريق الالتزام وتجعله شرطًا لاستمرار علاقتكما، أو أن تبتعد عنه تمامًا وتتحرى قطع كل وصالٍ بينكما يَشغَلُك عن أهدافك السامية، ولماذا هذان الخياران تحديدًا، لأننا ننتظر ردة فعلٍ مِن هذا الصاحب حتى لا نظلمه، فإن كان فيه بعض الوُدِّ و الخير لك سيستجيب لصحبتك وستصبح أنت المؤثر فيه اليوم، أنت الذي ينقذه من براثن الغفلة والتيه والعبث، وهنا تستغل تأثيرك في خيره وصلاحه، وليس كما كان من قبلُ، يستغل تأثيره عليك في بؤسك وشقائك! وثمَّ إن لم يكن فيه خيرٌ ولا ودٌّ يحمله بصدقٍ إليك فسيصبح عدوًا لدودًا بل محاربًا ومتربصًا بك، وحينها خير ما تعالجه به هو هجرانه الهجران الجميل، فإما أن يحترم التزامك وإما أن يُجبَر على احترامه بالحزم.

ثم احرص على مَلء فراغه الذي كان يملأُه بتأثيره المثبِّط، وذلك بحسن الاختيار لصديقٍ صالحٍ، ابحث عنه في ميادين العلم والدعوة والمسابقة في الخيرات في ساحات الجِد والعمل والصدق مع الله، في الأرض أو على الإنترنت، المهم في وسط الصلاح.

---

[١٧] الكهف ٢٨.

واحرص على حفظ علاقتك الثمينة مع الطيبين وأصحاب الهمم، وهذا الفن في الاحتفاظ بالأصدقاء الصالحين لا يجيده كثيرٌ من الناس ولأهميته وأولويته تخصيصًا وتفصيلًا لعله وعسى يكون من أسباب سعادتك ورقيِّك على عكس ما كانت عليه صحبة السوء في أسباب تأخرك وانحدارك.

ستصادف يومًا في طريقك من حمل ذات الهم والهدف أو على الأقل درجة الصلاح التي تؤهله لصحبتك، وقد تنجح في صناعته بنفسك حين تدعو صاحبًا قديمًا ويتأثر بدعواك فيلتزم ويسير معك بِرضًى وندمٍ على ما فات. وما يُدريك أن يكرمك الله فتفوزُ ببضعة أصحابٍ صالحين بدل صاحبٍ واحدٍ، وحينها عليك بحمد الله وحفظ هذه الصحبة.

وقد جُبلت النفوس البشرية على التعارف والتآلف، فإنْ تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضًا، وإن تعاونوا على البر والتقوى تحابوا بينهم وتوادُّوا، ولهذا فخير ما تحفظ به صحبتك الصالحة عملٌ صالحٌ يشغَلكما، عملٌ طيبٌ تتقربان به من الله سبحانه وتعالى بإخلاص النية لله، قد يكون تعلم علمٍ معَينٍ أو قراءة كتابٍ، أو ممارسة رياضةٍ معينةٍ أو هوايةٍ مفيدةٍ، قد يكون مساعدةً مبرمجةً لأهل الحاجة، قد يكون تعاونًا على الإنفاق في سبيل الله، أو كفالة يتيمٍ أو التخطيط لمشروعٍ مميّزٍ، وأضعف الإيمان أن تترافقا في الطريق إلى المسجد لأداء الصلوات... المهم أن تشتركا في عمل عبادةٍ، أو تطوعٍ خيريٍّ يبارك الله به لكما ببركما وتقواكما، فتكون صحبتكما مثمرةً، ثم للحفاظ على هذه العلاقة، لابد أن تُبعِدا عن طريقكما كل غِيبةٍ ونميمةٍ وصفاتٍ ذميمةٍ و(من حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه) [١٨] ، انشغِلا بالخير والعلم والعبادة أو اللهو المباح، وإياكم والانشغال بأعراض الناس وعيوب الناس وأخطاء الناس، فما رأيت أشد إهلاكًا للعلاقات من الخوض في هذا الباب، ويحضرني هنا حديث رسول الله

[١٨] رواه مالك في الموطأ والترمذي وابن ماجة وقال البخاري لا يصح إلا عن علي بن الحسين مرسلا. وكذا قال الإمام أحمد ويحى بن معين والدارقطني.

صلى الله عليه وسلم:(من تَتَبَّع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه[١٩] "ثم إن الاستدراج من الشيطان يبدأ من الحديث عن الناس، ليشغل وقتكما الثمين في خسارة الحسنات فقاوِماه ولا تفتحا له الباب أبدًا، ولْيُذكِّر أحدكما الآخر، ما لهذا اجتمعنا، بل إن أهدافنا ومشاغلنا أرقى من أن نتفرغ لمثل هذه الاهتمامات المُهلكة.

احفظ لصاحبك قدْرَه من الاحترام واستعمل معه الألفاظ الحسنة تكسوها المودة والرحمة، لا تغْلُ في الفكاهة حتى كسر حاجز الاحترام والتقدير بينكما، فالشيء إن زاد عن حده انقلب إلى ضده، احفظ هيبة المحبة والثقة، فإن رباط الثقة أهم ما يجب حفظُه في علاقةٍ بين اثنين نرجو لها أن تدوم، اكتُم أسراره، اصدُقْه القول والنصيحة، احفظه في الغيب كما تحفظه في الحضور، احفظ أشياءه وإياك وأماناتِه أن تضيع، كن كريم النفس، سخيًا جوادًا معه، فلْيجدك حين يحتاج إليك، ولا تنسَ الوصفة السحرية لتوطيد أواصر المحبة (تهادوا تحابوا[٢٠]) فإنها تؤلف القلوب وتقوي العلاقات وتجمع بحبٍّ الأصدقاء...

تجاوز عن زلاته وارحم عثراته، ألا تحب أن يغفر الله لك؟! لا تدقق في خصوصياته لا تراقبه مراقبة الجاسوس أو الفضولي، دع علاقتكما تنساب بانسجام، وإياك وفتح باب الحسد أو الغيرة أو الحقد، فإن الله يؤتي فضله من يشاء، يمكنك أن تغبطه ولكن لا تحسده، يمكنك أن تسأل الله من فضله ولكن لا تتضايق لخير يصيبه، وتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[٢١]واحذر فظاظة الطبع، فلو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فإن نصحتَ فبرفقٍ وإن دعوت فبحلمٍ، وأمسك نفسك عند الغضب، فإن الغضب من أكثر الأبواب التي يستغلها الشيطان، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس

---

[١٩] حسن صحيح قل الألباني في سنن الترمذي برقم ٢٠٣٢

[٢٠] حديث حسن أنظر صحيح الجامع.

[٢١] متفق عليه.

الشديد بالصُرَعَة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) [٢٢] كن خفيف الظل دَمِثًا لا يُثقِل في الزيارة، سريع البداهة يسعى لراحة رفيقه قبل راحته، تحسس حاجاته وفرج عنه كرباته إن استطعت، اعتذر منه وعوضه إن أخطأت بحقه، تصدَّق عن نفسك وعنه وادع لنفسك وله، تعلَّم فن الحب في الله وعلِّمه أنه من أسباب دخول الجنة والدخول في صف الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله...

قال الأوزاعيّ-رحمه الله :-سمعت بلال بن سعد بن تميمٍ، يقول: أخٌ لك كلّما لقِيَك ذكّرك بحظّك من الله خيرٌ لك من أخٍ كلّما لقيك وضع في كفّك دينارًا.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:" عليك بالصدق ولو قتلك واحذر صديقك إلا الأمين"

فكن أنت هذا الصديق وكما قيل من قلَّ صدقه قلَّ صديقه، ولكن احذر...!

لا يعني أن تحسن لصاحبك أن تجعله مقدسًا... إنْ فسدَ أو انحرفَ انكسرتَ وانحرفتَ وفقدتَ الأمل في الحياة، بل اجعل إحسانك له وصدق مودتك لله خالصةً، احتسبها قربى لله وفي سبيل الله لا قربى له وفي سبيله هو! فقد يتغير الصاحب مع الأيام أو يخون أو يتبدل، فحينها لا تلُمْ نفسك واسأل الله أن يعوضك خيرًا منه، ولْيكن عزاءَك كلماتُ المتنبي: إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا، بل هذا الإحسان امتحان صدقٍ، إما أن يصدُقَ فيكونَ الكريمَ ويستحقَّ بجدارةٍ لقب الصديق الأمين، أو أن يكون اللئيمَ فيستحقَّ بجدارةٍ أن لا تأسف عليه! وتذكَّر أن صداقته كانت بهدف القربى من الله وليس منه، فإن فشلْتَ فلا تحزن ولا تبتئس فكل شيءٍ ما خلا الله باطلٌ. (وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) [٢٣]

---

[٢٢] أخرجه البخاري رقم ٦١١٤ ومسلم رقم ١٠٧ كتاب البر والصلة.

[٢٣] آل عمران ١٤٠.

فامضِ في طريقك وأحسن الظن بربك يمُن عليك بخير أُنسٍ وخير صحبةٍ.

قال الشافعي:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفا فدعه ولا تكثر عليه التأسفا

ففي الناس أبدالٌ وفي التَرك راحةٌ وفي القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا

فما كل ما تهواه يهواك قلبه ولا كل من صافَيته لك قد صفا

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعةً فلا خير في خلٍ يجيء تكلفا

ولا خير في خلٍ يخون خليله ويلقاه من بعد المودة بالجفا

وينكر عيشًا قد تقادم عهده ويظهر سرًا كان بالأمس في خفا

سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها صديقٌ صدوقٌ صادق الوعد منصفا

وقال أيضًا:

إذَا لَمْ أجِدْ خِلًا تَقِيًّا فَوِحْدَتي ألَذُ وأشهى من غويٍّ أعاشرُهُ

وأجلسَ وحدي للعبادة آمنًا أقرُّ لعيشي من جليسِ أحاذرُهُ

الحديث عن الصداقة حديثٌ ذو شجونٍ يدعو للاسترسال والإطالة، ولكنني أتوقف هنا. وتستمر صفحاتنا...

وأسأل الله أن يسخِّرَ لك خير صديقٍ وفِيٍّ، وأن يجعلك أيضًا ذلك الصديق الوفِيّ فترتقيان معًا وتحلّقان في فضاء السعادة معًا!

الفصل الثامن: لكل نفسٍ طبيبٌ ولكل فارسٍ كبوةٌ



النفس البشرية بحد ذاتها علمٌ معقدٌ له أسرارُه وقواعده، قد برع الإمام العلامة ابن القيم الجوزية-رحمه الله-في دراسته وتحليله والغوص في أعماقه، فلن أجد أفضل لك مِنْ كُتُبه التي تتناول هذه النفس بالتشريح والتفصيل والتشخيص والتطبيب.

لم أجِدْ أروع وصفًا من كتب ابن القيم لخبايا النفوس رغم تعقيداتها ولأسقام القلوب رغم تنوعها، وقد ترتاح لغيرها ولكنني أرى في مجموع كتبه الزادَ الكافيَ لكل مقبلٍ ومسابقٍ... أرى فيها خلاصةً عبقريةً استقَتْ من مَعين القرآن والسنة واجتهدتْ في اختصاصٍ قلما يتخصص فيه أهل العلم...

هو اختصاص الطب النفسي، الطب الروحي، طبٌّ يحلل لك نفسك كصفحات الأطلس أو موسوعات التشريح... كخرائط الجغرافيا ومخططات الطوبوغرافيا، كمعادلات الكيمياء أو فزيوباتولوجيا المرض[٢٤]، يبسط لك كل التغيرات التي تمر بها، والمؤثرات التي تتفاعل معها، يفصل لك أسباب الداء وأعراضه، ويصف لك العلاجات وسبل النجاة.

لقد لخَّص ابن القيم للملتزم الجديد وكذا المُسابِق للعلياء، برنامج الأشقياء وبرنامج الأتقياء، وفصَّل كل برنامجٍ بدقائقه وحقائقه، لندرك كيف يصل بصاحبه للشقاء أو إلى السعادة.

وحقًا إنها السعادة أن تكون مدرِكًا بوضوحٍ لتفاصيل نفسك ومكامن القوة فيها ونقاط الضعف فتقودَها بإدراكٍ تامٍ ومعرفةٍ لخير السبل وأقوَمِها.

---

[٢٤] الفزيوباتولوجيا: هي فرع من الطب، يعنى بدراسة طبائع الأمراض والتغييرات التركيبية والوظيفية التي تقترن بمختلف الأمراض، وما تحدثه الأمراض في الأنسجة من تغييرات، أو ما تستثيره فيها من رد فعل وتغييرات يضمن ظواهر شتى: كالتحول والضمور والتضخم والالتهاب.

في هذه المسـيرة المباركة قد تشـعرُ بالوهْن فجأةً أو بعض الزلل، قد يتراءى لك ذنبٌ فيحبطك ويُثنيك عن العمل، فابحث عن البداية من أين كانت، وحاول أن تشـخص الداء وتقدم له الدواء.

وتأمَّل كيفَ شخَّصَ عبقريُّ طب النفس ابنُ القيم فزيوباتولوجيا الزلل وطريقة علاجه حين قال:" أول ما يطرق القلبَ الخطرةُ فإن دفعها اسـتراح مما بعدها وإن لم يدفعها قَوِيَتْ فصارت وسوسةً فكان دفعُها أصعب فإن بادر ودفعها وإلا قويت وصارت شهوةً فإن عالجها وإلا صارت إرادةً فإن عالجها وإلا صارت عزيمةً ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يُمكِن دفعها واقتَرَن بها الفعل ولابد وما يقدر عليه مرةً بدون مقدماته وحينئذٍ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية وهو الاسـتفراغ التام بالتوبة النصـوح ولاريب أن دفع مبادئ هذا الداء من أوله أيسـر وأهون من اسـتفراغه بعد حصـوله-إن سـاعد القدر وأعان التوفيق، وإن الدفع أولى به، وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب، فليوازن بين فَوات هـذا المحبوب الأخس المنقطع النكِـد المشـوب بـالآلام والهموم، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبة لهذا المحبوب إليه البتة، لا في قدْره ولا في بقائه، وليوازن بين ألم فَوْته وبين ألم فوت المحبوب الأخس، وليوازن بين لذة الإنابة والإقبال على الله تعـالى والتنعم بحبـه وذكره وطـاعتـه ولـذة الإقبـال على الرذائـل والإتيـان بالقبائح، وليوازن بين لذة الظَفَر بالذنب ولذة الظفر بالعدو، وبين لذة الذنب ولذة العفة، ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام عدوِّه ورده خاسـئًا ذليلًا، وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده، وبين فَوْت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه وفوت حُسن جزائه وجزيل ثوابه، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عـاجلًا وفرحـة مـا يثنيـه عليـه في دنيـاه وآخرتـه والله المستعان".

وتأمل معي كيف يجلِّي ابن القيم في" أمراض القلوب وشـفاؤها "المفاهيم حول زيادة الإيمان ويشـرح السـبل المنجية حين يقول:" فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص

بالمعصية فكلما فعل العبد الطاعة محبةً لله وخوفًا منه وترك المعصية حبًا له وخوفًا منه، قَوِيَ حبُّه له وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره، وهكذا أمراض الأبدان فإن الصحة تُحفظ بالِمثل والمرض يُدفع بالضد، فصحة القلب بالإيمان تُحفظ بالمثل، وهو ما يورث القلب إيمانًا من العلم النافع والعمل الصالح، فتلك أغذيةٌ له كما في حديث ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا إن كل آدِبٍ(صاحب مأدبةٍ) يُحب أن تؤتى مأدبتُه، وإن مأدبة الله هي القرآن والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده آخر الليل وأوقات الأذان والإقامة وفي سجوده وفي أدبار الصلوات، ويُضَم إلى ذلك الاستغفار فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متَّعه متاعًا حسنًا إلى أجلٍ مسمًى ولْيتخذ وردًا من الأذكار في النهار ووقت النوم، وليصبر على ما يعرِض له من الموانع والصوارف فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروحٍ منه ويكتب الإيمان في قلبه، ولْيحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنةً وظاهرةً فإنها عمود الدين وليكن هِجِّيراهُ(ما يولع بذكره) لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنه بها تُحمَل الأثقال وتُكابَد الأهوال ويُنال رفيع الأحوال، ولا يُسأَمُ من الدعاء والطلب فإن العبد يُستجاب له ما لم يعجل، فيقول قد دعوتُ ودعوتُ فلم يُستجَب لي، ولْيعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرَجَ مع الكرْب وإن مع العسر يسرًا ولم ينَلْ أحدٌ شيئًا من ختم الخير نبيٌ فمَنْ دونَه إلا بالصبر والحمد لله رب العالمين".

وتأمَّل هذه الهمسة التي تحمل عمق نظرٍ وبصيرةٍ وتبصُّرٍ في فن علاج النفوس حين يقول ابن القيم:

"وهنا نكتةٌ ينبغي التفطن لها وهي أن القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة فالعبادات والأذكار والتعوذات أدويةٌ لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حِميةٌ لم يَزِدْ الدواء على إثارته وإن أزال منه شيئًا ما، فمدار الأمر على شيئين: الحمية واستعمال الأدوية".

إن الحديث عن أمراض القلوب وأنواعها وأدويتها، والتعمق في خبايا النفوس وأسـرار طبيعتها وحفظها وكذا أخطار الشـياطين وطُرُق التصـدي لها وقهرها، فضـلًا عن طُرُق السـعادة والرُّقي والفَلَاح، كل هذا وأكثر سـتجده مبسـوطًا في كتب ابن القيم، وما أدرجْتُه هنا إلا لأني أعتقد أنه من الكتب الأولى التي عليك العناية بها لتعرف نفسـك فتقويها وتحصِّنها من كل اختراقٍ وترتقي بها إلى درجات السعادة.

ولا شـك أن أمامك الكثير من الكتب النافعة ولكن الوقت لا يسـمح لقراءتها كلها لهذا كن ذكيًا في انتقاء الأفضل والأكثر نفعًا لك، ما يختصر عليك الطريق ويزودك بالزبدة وأصـل العلم، وحين نتحدث عن باب الالتزام فإنه من الصـعب أن ندرك كنهه دون الدراية بماهية هذه النفس وطبيعتها وتصـنيف القلوب وأمراضـها وعلاجاتها، إنه علمٌ مثل كل العلوم، له قواعده ومصطلحاته ونظرياته ومفاهيمه...

أرأيت طبيبًا يعالج مريضًا دون درايةٍ كاملةٍ بتفاصيل جسمه وأنواع الأمراض والأدوية، وكذلك النفس البشـرية كلما تعلمتَها كلما اسـتطعت أن تسـوسـها بحكمةٍ وبصـيرةٍ، وهكذا يسـوس الخيَّال فرسـه، فلا تقوده هي لما تريده من طرق قد تكون مهلكةً تلقي به من مكانٍ سـحيقٍ، أو تقف به عند مسـالكَ مسـدودةٍ، إنما يوجهها هو كما يريد إلى الأهداف التي يريدها فيختصر الطرق ويحقق الأهداف المرجوة، وهو مع ذلك يسـوقها براحةٍ تامةٍ لأنه ممسـكٌ بلجامها فيشـدُّه تارةً ويُرخيه أخرى، يُسـرع تارةً ويتأنى في الأخرى، يتوقف تارةً ويمشي على بركة الله تارةً أخرى، وهكذا إن حصـل و وَثَبَتْ فرسُـه أو أوقعته فلكل فارسٍ كبوةٌ، علِمَ كيف يقوم من سـقطته وكيف يركب من جديدٍ بعزم من حديدٍ، وتعلم من خطئه وتفرَّس في طبائع فرسـه فكان خير خيَّالٍ يعرف طريقه ويحسن المسير، ومن علم أبصر ومن أبصر هانت عليه الطريق!

تأمَّل نفسـك الآن، لقد أصـبحتَ تدرك عظمة الله سـبحانه وتعالى في خلق هذا الكون وهذه النفس البشرية، أصبحت تُلِم ببعض الحكمة من هذا الطريق الذي يتصارع فيه الحق والباطل والخير والشر فيُمتحَن المؤمن ويُمحَّص المسلم ويُسابَق المحسن، ويفوز

السعيد ويتأخر المقتصد، ويخسر الظالم لنفسه. لقد أدركت اليوم ما معنى جهاد النفس واجتهاد المقبل، وترسَّخ لديك أن كل نعمةٍ منه فضلٌ، وكل نقمةٍ منه عدلٌ!

وكلما زاد علمك زادت حكمتك وقَوِيَتْ بصيرتك وعرفتَ أصل السعادة، قال ابن تيمية: "السعادة هي أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرِّب إليه ".

وصدق حين قال:" العبد دائمًا بين نعمةٍ من الله يحتاج فيها إلى شكرٍ، وذنبٍ منه يحتاج فيه إلى الاستغفار ."فاشكره على نعمه واستغفره من تقصيرك وزللك.

ولا تتعجب إن رأيت ابن تيمية وتلميذه ابن القيم أكثر نجمين لمعا في سماء الكتابة عن النفس ومحبة الله، فقد أرجع ذلك المتبصرون إلى كونهما ذاقا لذة حب الله في مراتبها السامقة، فتمكنا من وصفها أعجبَ وصفٍ، وهذا من فضل الله عليهما، فتأمل معي، هل يصف أحدٌ وصفًا لم يعرفْه وهل يبرَع في وصفٍ لم يُدركْه، هكذا استطاع الشيخ وتلميذه أن يطأ الثريا وينقلا ذلك الرقي في الشعور إلى صفحاتهما لعله يلخص جزءًا من روعة عالَمٍ لم يعرفه إلا القلة من العباد، ذلك بأن محبة الله سلم درجاتٍ، يرتقي فيه المرء بحسب اجتهاده وفضل الله عليه.

وإن وقعت في زللٍ، أو تعثرت في الخطى، فلا تُحبَطْ ولا تحزن فإن لكل فارسٍ كبوةً ولكل نفسٍ طبيبًا، فابحث في كنز الحكمة والعلم الذي خطَّه ابن القيم، وانظر كيف هي نفسك وأين الداء وما هو الدواء، وتوكل على الله يَحْدُوكَ.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ).

الفصل التاسع: تحسبه هينا وهو عند الله عظيمٌ



إن الاستهانة هي أول خطوات التراجع والتكاسل وربما السقوط، قد يصغُر في عينك الذنب وتستهينه في حين هو عند الله عظيمٌ، وهذا الشعور إن صادفك في طريقك فعليك تدارُك نفسك والمسارعة للعلاج، فالمسلم المقبل لابد أن يحمل في صدره شعورًا بالتقصير باستمرارٍ، ورغبةً في التدارك والسَّبق لا تخمَد، يدفعه ذلك بقوةٍ للإنجاز والتصحيح فهو كالوقود لتلك الهمة، كالمحرض لتلك النفس، إنه أحد أسباب التميز والنجاح.

ولكن قد تفسد عليك صحبةٌ غير صالحةٍ هذا الرقي وقد تنسيك مكيداتُ الشيطان هذا النقاء، فتَؤُزُّكَ على إمعان البصر في محرَّمٍ وتستصغر في عينك غض البصر، فتَقبَل مستهينًا بهذا الأمر الجلل، وتقول لا مشكلة في إمعان النظر ففي النهاية أنا بشرٌ وإن هو إلا مجرد نظرٍ، وما علمْتَ أنك قد أسعدت عدوك وأسلمْتَه بعضًا منك يسوسها بهواه وحقده ليرديك في شرٍ لم تدركه.

قال الفضيل بن عياضٍ-رحمه الله" :-بقدر ما يصغُر الذّنب عندك يعظُم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله".

هكذا تجد الملتزم قد يستصغر النظر في صورٍ محرمةٍ أو نساءٍ سافراتٍ أو مَناظرَ لا تنفعه في دينه ولا أخراه، وليته استجاب لأمر الله، وعفّ بصره ليوفر عليه الخطرة التي إن استمر في تهاونه ستصبح وسوسةً وإن تمادى في التهوين قويت وصارت شهوةً وقد تتحول إلى إرادةٍ ثم عزيمةٍ وحينها لن ينفعه ندمٌ!!

سُئل بعضُ العلماءِ عن عِشقِ الصُورِ فقال: (قلوبٌ غَفلت عن ذكرِ اللهِ فابتلاها اللهُ بعُبُودِيَةِ غَيرِه) ولهذا فإن الاستهانة بمثل هذا الذنب من دلالات ضعف الإيمان.

قد تقول ومن منا لا يخطئ أو يزِل أو يتعثر، قلتُ ليست المشكلة في الخطأ والزلل أو التعثر إنما المشكلة كل المشكلة في تهوينها واللامبالاة بها وترك مجاهدة النفس لها وترك التوبة والاستغفار منها وكأنها لم تكن.

قال الحسنُ-رحمه الله :-

(المؤمنُ قوَّامٌ على نفسِه، يُحاسِبُ نَفسَهُ لله، وإنَّما خَفَّ الحِسَابُ يَومَ القيامةِ على أقوامٍ، حاسَبوا أنفسَهم في الدنيا، وشَقَّ الحِسَابُ على أقوامٍ يومَ القيامةِ، أخذوا هذا الأمرَ على غَيرِ مُحَاسَبَةٍ، فحاسِبوا أنفسَكم رحمَكم اللهُ وفَتِشُّوا في قلوبِكم).

تفقَّد قلبك في كل حينٍ يدعوك الهوى لمثل هذا الخطأ، فإن وجدته قلبًا يسعى إلى الطاعات والخيرات وينفر من المعاصي والمنكرات. كنتَ من (الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ). [٢٥]

وإن وجدت في قلبك الإنابة يحب الرجوع والتوبة إلى الله فكنتَ مِن (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ). [٢٦]

فإن عرفت في قلبك الوجل تخاف من الله عز وجل، وإن ذُكِّرت به كنت من (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) [٢٧] فإن عرف قلبك التقى... وجدتَ نفسك تعظم شعائر الله (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ)[٢٨].

اجعل من هذا التشخيص زيادة عزمٍ على الثبات والاستقامة ومواصلة المسير بلا كللٍ ولا مللٍ.

وتحصَّنْ حتى لا يتحول قلبك إلى قلبٍ أسودَ بغيضٍ لا يعرف الإيمان قد تشبَّعَ بالمعاصي والذنوب حتى أصبح قاسيًا من غضب الله عليه، وهذا حال القلب الغافل،

---

[٢٥] الرعد ٢٨.

[٢٦] ق ٣٣.

[٢٧] الأنفال ٢.

[٢٨] الحج ٣٢.

الذي انشغل عن أداء فروضه وواجباته وما خُلق له في هذه الحياة، فكان ممن نسي الله فنسيه! وربما الخطر كل الخطر أن بدايته كانت من الاستهانة بالذنب يحسبه هينًا وهو عند الله عظيمٌ، أو الإصرار على ذنبٍ متعمدًا وهو في عينه لا يستحق التهويل في حين هو سبب بداية السقوط.

قال ابن الجوزي-رحمه الله " :-لو عَلِق مسمارٌ بثوبك لرجعت إلى الوراء لتخلصه، فأين مسامير الذنوب".

وقال الحسن البصريُّ-رحمه اللّه " :-إنّ العبدَ لا يزال بخيرٍ ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبةُ مِن هِمّتِه".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلَحت صلَح الجسد كله وإذا فسدتْ فسد الجسد كله " [٢٩]

وهذا ما يفسر تركيز إبليس على القلب وتخصصه في الوساوس واستعانته بالشهوات وتزيينه للباطل، ونصبه المصايد والحبائل التي لا يمكن لبشرٍ تجاوزها دون الاستعانة بالله تعالى والسعي لمرضاته والفرار إليه في السراء والضراء، وتحقيق العبودية الخالصة لله فيأمَن بـ(عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ).

ومن داوم النظر في الشهوة، وما يتصل بها متعمدًا، قد يكون أعظم بكثيرٍ ممن وقع في شهوةٍ بلا قصدٍ منه بعد استدراج شيطانِ إنسٍ له. ثم إن جاءتك موعظةٌ أو ذكرى فإياك أن تستكبر وتأخذك العزة بالإثم وتكون ممن قال الله فيهم: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ)[٣٠] وتذكَّر أن (كل بني

[٢٩] رواه البخاري ومسلم.

[٣٠] المدثر (٤٩-٥١)

آدم خطاءٌ، وخير الخطائين التوابون)[٣١] فإن أخطأتَ فأصلح خطأك بالرجوع والتوبة ومحاسبة النفس وتذكر قول الله تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) [٣٢] واعتمِد هذه القاعدة في مسيرتك: من أساء سرًا أحسن سرًا، ومن أساء علانيةً أحسن علانيةً.

وقد قال بعض العلماء: لا بد للإنسان من شيئين: طاعتِه بفعل المأمور وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور. فإن استقمتَ ستجد نفسك بين هذه الثلاث طاعةٍ وتركٍ وصبرٍ.

وانظر لرحمة الله بك، فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكَرِهه وألقاه؛ ازداد إيمانًا ويقينًا، كما أن كل مَنْ حدثته نفسه بذنبٍ فكرهه ونفاه عن نفسه، وتركه لله ازداد صلاحًا وبِرًا وتقوى، وهذا من كرم الله ورحمته بعباده وتيسيره لمن أحب القرب من الله وكره الذنب لأنه يبعده عن الله.

وعليك أن تدرك أن المطلوب منك هو الاستقامة وهي السداد فإن لم تقدِر عليها فلا أقل من المقاربة لأنك إن نزلت عنها فقد وقعت في التفريط والإضاعة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل "[٣٣].

وقد قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركةٌ في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة. وفي ذات السياق قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

---

[٣١] صححه الألباني.

[٣٢] القيامة ٣٦.

[٣٣] رواه البخاري ومسلم.

ثم اعلم أن الإنسان حين يكثر من الذنب ويتعود على الزلل فإنه يعاني حالة ضعفٍ في الإيمان، وهو بحاجةٍ لتجديده وتقويته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الإيمان لَيَخْلَقُ في جوف أحدكم كما يَخْلَقُ الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم) [٣٤]وفي روايةٍ أخرى، (فجددوا إيمانكم بلا إله إلا الله)

قال ابنُ القيّم رحمه الله: " متى أقحطت العين من البكاء من خشية الله، فاعلم أن قحطها من قسوة القلب ." وهذه من الأعراض التي لا بد أن تدفعك للعلاج لا للتثاقل والتنازل...!

وهكذا قد يعتليك أحيانًا سحابةٌ من سُحُب المعصية كما وصف ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ببلاغةٍ عجيبةٍ: (ما من القلوب قلبٌ إلا وله سحابةٌ كسحابة القمر، بينما القمر مضيءٌ إذ عَلَتْه سحابةٌ فأظلم، إذْ تجلَّت عنه فأضاء) [٣٥]فبادر للاستعانة بالله، بالفرار إليه، بمناجاته... ببثه شكواك وأحزانك وطلب مغفرته ومعونته، ليحل النور من جديدٍ وتسكُن تلك النفسُ.

وقد تتعجب حين تقارن نفسك بالأمس القريب، حين كان إيمانك قويًا، وكنت المقبل الشغوف، المجتهد في العبادات بنشاطٍ، تستشعر معه سهولةً ويسرًا و رِقةً في القلب ودمعًا في المُقل، بينما اليوم أنت تعاني الكسل، تشكو قسوةً في القلب، وجفافًا في المقل، يسهُل عليك الوقوع في المعصية وأنت تتساءل كيف أقع في مثل هذا الذنب وأنا الملتزم المقبل، فتذكَّرْ حينها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ثم لجاء بقومٍ يذنبون ثم يستغفرون فيُغفر لهم) [٣٦]، ولهذا جعل التوبة والاستغفار هي العلاج حتى لا تيأس ولا تنتكس ولا تستسلم للمعاصي والذنوب.

---

[٣٤] الصحيحة للألباني ١٥٨٥

[٣٥] أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٩٦/٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٢٢٦٨.

[٣٦] رواه مسلم.

هي حقائقُ عليك معرفتها حتى لا يستغل الشيطان الفرصة تلوَ الفرصة فيختطفك من حلقة النور ويرمي بك في قاع الظلام، إياك والاستهانة بالذنب، كن من المحاسبين للنفس دوريًا، كن من المكفِّرين للذنوب، ومن التوابين لله ومن الحريصين على السداد والمقاربة. واستعِن بـ (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)[٣٧] ولتكن كبوة الفارس سببًا في زيادة إيمانه وثباته وإصراره على مواصلة طريق الاستقامة، لا التراجعِ والتنازل والاستسلام لِغِواية الشيطان، والله لن يضيع إيمانك واجتهادك وإخلاصك...

هذه كانت صفحةً من صفحات دفتر الالتزام، العناية بها جزءٌ من العناية بأسباب الالتزام والثبات على طريق الله المستقيم.

فاستعن بـ (واذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) وتذكَّرْ إنما العلم للعمل.

[٣٧] هود ١١٤.

الفصل العاشر: الأخلاق مرآة الالتزام



إنها الأخلاق التي بها يتمايز الناس ويتسابقون إلى أقرب مرتبةٍ من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذي قال:" أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خُلُقًا[٣٨] "وقال:" إن من أحبكم إليَّ أحسنَكم أخلاقًا ."[٣٩].ومسألة التحلي بالأخلاق الحميدة قد تكون سهلةً على الملتزم الجديد وإن كان حديث الالتزام، ذلك لأنه نشأ في بيتٍ يرعى الأخلاق ويهتم بها وتزينت تربيتُه بالخُلُق الجميل والحسن، في حين قد يجدها البعض طريقةً جديدةً لم يألَفْها لم يَتَرَبَّ عليها ولم يذُقْ حلاوة التحلي بها، إنه الملتزم الذي عليه أن يكتسبها ويعوِّد نفسه عليها ويعلِّمها من يرعاهم، فتتوارثها الأجيال وتحفظها من البخس أو النسيان.

إنه من الصعب سرد جميع الخصال التي على الملتزم التحلي بها ولكننا سنولي اهتمامًا بالأكثر تأثيرًا في سلوكه وقبوله وتميزه، ورأس الأمر الصدق، فقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه الصدق أمانةٌ والكذب خيانةٌ ويكفي قولُ الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ) [٤٠]. فاحرص على التزامك الصدقَ في القول وفي العمل، وقيل: من علامات الصدق أن تكون كلمتك واحدةً في الرغبة والرهبة والطمع واليأس، فإن حدَّثْتَ فلا تختلق كذبًا ولو مزاحًا، ابتعد عن أي أثرٍ للكذب حتى تُكتَب عند الله صِدِّيقًا، وإن كان ولابد، يمكنك استعمال المعاريض وهي طريقةٌ تخفي فيها الحقيقة بطريقة ذكية دون أن تضطر للكذب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وبيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيتٍ في أعلى الجنة لمن حَسُن خُلُقُه)[٤١].

---

[٣٨] رواه الحاكم وصححه الألباني.

[٣٩] رواه البخاري.

[٤٠] التوبة ١١٩.

[٤١] رواه أبو داود وحسنه الألباني.

وفي كل الأحوال أنتَ إن تحريتَ الصدق ضاق صدرك لأي كذبةٍ، وأصبحَتْ في نظرك ذنبًا عظيمًا، وهذه بحد ذاتها مرحلةٌ متقدمةٌ ترقى بك لِلذةٍ في الإيمان تستحق كل المجاهدة للنفس على التزام الصدق.

ثم بعد هذا الصدق يكون الوفاء بالعهد والوعد، إياك أن تكون ممن يستخف بالمواعيد، كن من المنضبطين الذين إذا وعدوا أوفَوا، فإن حددت موعدًا مع شخصٍ ما، لم تضيعْه أو تؤخِّرْه، والوعود بأنواعها سواءٌ القريبة أو البعيدة اجعلها في دفترك وتذكرها حتى لا تنساها فتدخل في وصف (إذا وعد أخلف) وهي من أسوأ صفات المسلم ولا شك أنها من صفات النفاق.

وقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثلاث صفاتٍ جاهد نفسك على ألا تكون فيك أبدًا، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ[٤٢]). وتجنبها سَنام-أي أعلى-الأمر في أخلاق المسلم.

ثم عندك الآداب التي يتخلق بها المسلم مع الكبير والصغير، مع القريب والبعيد، مع الوالدين والأقربين والغرباء وعابري السبيل، أحسِن خطابك وابتعد عن الفحش في القول، قال ابن بطالٍ-رحمه الله "-:المداراة من أخلاق المؤمنين وهي: خفض الجناح للناس، ولِين الكلمة، وتَرْك الإغلاظ لهم في القول ." وإن ظُلمت أو أوذيت فتخيَّر من الكلِم ما يرقى لمرتبة الالتزام التي وصلت إليها، فأنت ترجو رضا ربك، ويمكنك أن تقسو ولكن بأدبٍ وأن تنكر ولكن بخُلُقٍ، وتدبر قول الله سبحانه وتعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[٤٣] وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

---

[٤٢] رواه البخاري ومسلم.

[٤٣] آل عمران ١٣٤.

"إذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذَوه، ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار فاعلم أن مصيبته مصيبةٌ حقيقيةٌ".

ومن حسن الخُلُق حسن الجوار، ويكفي أن الله سبحانه وتعالى بعث جبريل ليوصي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجار، والإحسان إليه، فكلما كنت جارًا يحفظ للجيرة حقها كلما كان ذلك من رقي الخُلق وحسن المعشر. وحسنُ الجوار يتعدى لكل مراتب الجيرة سواءٌ في السكن أو السفر أو الانتظار أو مقاعد الدراسة... فلا يَتَأَذَّيَنَّ منك جارٌ.

ثم هناك خصالٌ ابتُلي بها الإنسان فهو في مجاهدةٍ لها ومدافعةٍ، منها الحسد وحب العلو في الأرض، وقد قال أحد العارفين: ما خلا جسدٌ من حسدٍ، لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه. وقال آخر:" ما من نفسٍ إلا وفيها ما في نفس فرعون، غير أن فرعون قَدَر فأظهر، وغيره عجز فأضمر. فالنفس مشحونةٌ بحب العلو والرياسة، بحسب إمكانها"، ولم أرَ أفضل من ذكر هادم اللذات لمعالجة هذه النزوات التي تظهر بين الحين والآخر خلال تفاعلاتنا في الحياة. فأكثِر من ذكر الموت واتعِظ من قصص الموتى والخواتيم وعوِّد نفسك حضور الجنازات والتدبر في أحوال ما بعد الموت، وما يلاقيه المرء من أهوال الحساب، في يوم يحشر فيه المتكبرون كالذَرّ!

قال ابن القيم:" إن الدنيا إذا كَسَتْ أَوْكَسَتْ، وإذا غَلَتْ أَوْغَلَتْ، وإذا جَلَتْ أَوْجَلَتْ، وإذا حَلَتْ أَوْحَلَتْ، فالسعيد من جرب رباعها وإذا مدتْ له باعها باعها، فيا مغترًا بالسلامات كم من عاشقٍ سلا مات. وكم من مَلَكٍ رفعت له علامات فلما علا مات!!" .

ثم من مواقف الامتحان موقف الغيبة والنميمة والإفك والبهتان، وما أكثرها في زماننا اليوم وما أسهل الافتراء والطعن في الأعراض، ولهذا فعلى الملتزم أن يعتمد قاعدةً قرآنيةً رائعةً، ألا وهي (فَتَبَيَّنُواْ).

قال الحسن البصري:

"المؤمن وقّافٌ متبيّنٌ".

ثم ليستدرك بالتكفير عن الغِيبة والابتعاد عن المجالس التي توقعه في مثل هذا الذنب الذي يمحو الحسنات كأنها لم تكن... في حين كان يكِدُّ لتحصيل تلك الحسنات.

واعلم أنه إذا اندفع عن النفس المُعارِض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك؛ أحبَّ القلبُ ما ينفعُه من العلم النافع والعمل الصالح وأقبَل على السعادة الحقيقية.

والأخلاق مرآةٌ لحقيقة الالتزام، لا يمكننا أن نتخيل ملتزمًا فظًا غليظ القلب ينفِر منه كل من يعاشره أو يقاربه، احرص على أن تكون أخلاقك قدوةً لكل من يعرفك، والأخلاق الحميدة عنوان الفلَاح، وقد قيل، عنوان فَلَاح المرء أدبُه، فانظر أيَّ الخصال ترفع من شأن المسلم... أيَّ المروءة يتحلى بها المسابق المدرِك، حينها تزود بها، ستجدها في كتب الرقائق والأخلاق، ستجدها في سير الأنبياء والصحابة ستبصرها في كل من حمل همّ هذا الدين في قلبه وأصبح يعيش ويتنفس لأجل رضا ربه!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أكمل المؤمنين إيمانًا، أحسنهم خُلُقًا) [٤٤]

إن الأخلاق تُكتسب مع المداومة، فلو أنك تعيش في بيتٍ تفوح منه الأخلاق الحميدة سيكون سهلًا عليك التخلق بها، ولكن إن كنت في بيتٍ يكثر فيه السب والشتم وما ساء من الأخلاق، فهذه عقبةٌ حقيقيةٌ أصبحتْ أمامك، ولحلها فأنت الأعلم بحالك وحال الوسط الذي أنت فيه، فإن كان الأمر مستفحلًا ولا يمكنك علاجه البتة وأن القوم دأبوا على الفحش في القول وسوء الخلق فإن استطعت أن تأوي إلى ركنٍ شديدٍ بعيدٍ عن هذه الجاهلية فهو خيرٌ لك، لأنك بحاجةٍ الآنَ لأَنْ تنطلق لا أن تتعثر، لأن تجتهد لا أن تضطرب، ولهذا الوسط لابد أن يكون فيه الحد الأدنى من عوامل الثبات، فلا تدخل في جاهليةٍ تنسيك تقوى الله، وقد يستثير أحدهم غضبك فتنحدر إلى أدنى المستويات فتشعر باختناقٍ، بفشلٍ، بتراجعٍ، يجعل في عينك كل ما أنجزته لم يعد له أثرٌ.

---

[٤٤] رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وهذه من مكائد الشيطان فهو يحرص على أن يزرع الحزن في قلبك، أن يحزن المؤمنين ويحبطهم فيثنيهم عن مواصلة المسير بجدٍ وعملٍ...

حاول أن تخصص لنفسك الزاوية أو المكان الذي تنأى فيه بنفسك الكريمة عن وحل الانحدار، إن كنت قادرًا على أن توفر لنفسك هذا المكان كبيتٍ مستقلٍ أو غرفةٍ مستقلةٍ كحدٍ أدنى تستطيع فيها أن تتحكم في حرياتك لتتجاوز هذه العقبة، ولكن إن كنت ممن يضطر للمعاشرة التي تدفع بك للأذى، فلا بد أن تتجهز كالفارس، كالداعية، من يجابه الظلم والانحراف بالسياسة تارةً وبالقوة تارةً أخرى، أنت الآن أمير ذلك الوسط، حاول أن تكون صاحب التأثير والقوة، بحكمةٍ في اللسان وتذكيرٍ بالله ونشرٍ للحسنى ونهيٍ عن السوء، بحزمٍ عند الخطوط الحمراء، كن المصلح كن المربي كن المرشد كن القائد، إنها معركةٌ بات عليك خوضها ولو كنت مُكرَهًا، فبعض الخطر لابد من مواجهته ولابد أن يعلم مَنْ حولك أنك لم تعد ذلك المستهتر، فإما أن يحترموا هذا التغيير والالتزام الحَسَن أو أن يرتدعوا في حدودٍ لا تؤذيك وتؤرِّق عليك التزامك وراحتك.

والحال نفسه مع الفتاة التي تشعر بالاستضعاف، فخيرٌ لها الابتعاد عن كل ما يؤرق سكينتها والتزامها وأن تدعو بالحكمة والموعظة الحسنة وإن استطاعت الاستعانة بمن يؤمن لها ذلك الوسط فلا تتأخر، فإن دوام الحال من المحال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٤٥].

وهنا نحن بحاجة لتوضيح مسألة المحيط الفاسد الذي يعيش فيه بعض الملتزمين، فقد تصل درجة فساده أحيانًا إلى أن تجبر الملتزم على اعتزاله تمامًا، والنجاة بنفسه،

---

[٤٥] فصلت ٣٠.

وكلما كان قادرًا على الاستقلال كلما كان عليه أن يبادر لهذه الخطوة دون ترددٍ، وفي بعض الأحيان قد يكون الأمر بحاجةٍ لسياسةٍ وتدبيرٍ، فليخطِّطْ له ولا ييأسْ فإنها مسألةٌ تخص حياته ومستقبله، ولن يُعجِزه أن يحسن التخطيط لحياةٍ يكون هو مَلِك نفسه فيها، ينتقي لها طيِّب المشاغل والأعمال. وقد يستغرب بعضهم أنْ ثمةَ بيوتًا فيها هذا الشكل من دناءة الأخلاق، فمع الأسف هي موجودةٌ ونسبتها معتبرةٌ جُبلت القلوب فيها على القسوة والتيه والضَّياع، فلم تعرف للتقوى بابًا ولم تطرُق للتوبة منزلًا. فمن ابتُلي بمثل هذا النوع من البشر فعليه أن يترفع بنفسه قدر المستطاع عن وسطهم، ويدعوَهم لله في كل فرصةٍ لعله يكون سببًا في إصلاح حالهم وهدايتهم.

ثم ما أجمل التعامل مع أصحاب الخُلُق الحسن، إن محبتهم لتطرق القلوب بتأثير الأدب، كم يسعدنا استئذانُهم وشكرُهم وعفوُهم وتوقيرُهم للكبير وعطفُهم على الصغير وتحسُّسُهم لحاجة مَنْ حولهم وتفاعلهم الطيب والمبارك مع من يختلط بهم!

فإن حِزت هذه المكرمة فاحفظها بالمطالعة في مكارم الأخلاق وفضائل الخلق الحسن وقبل ذلك بالاستعانة بالله وشُكره على آلائه.

لنرتقِ في معاملاتنا وفي سلوكنا، لنقدمْ تلك الصورة المشرقة للمسلم الملتزم الذي أنار قلبَه نورُ الإيمان فظهر على ملامحه وأخلاقه. وصلاح الفرد صلاح أسرةٍ، صلاح مجتمعٍ، صلاح أمةٍ، كانت خير أمةٍ أُخرجت للناس، وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت!

الفصل الحادي عشر: الزواج في حياة الملتزم



الملتزم بين حالتين، إما أنه متزوجٌ ويحمل مسؤولية أسرةٍ أو أنه أعزبُ لم يُقبل بعدُ على الزواج.

وفي مسيرة الالتزام، يُعَد الزواج من أهم الأسباب المعينة على الثبات وقد يكون أحد أسباب الاضطراب والتراجع، فإن كنتَ متزوجًا وقررتَ الالتزام فاعلم أن التزام شريكك في الحياة من أَولى أولوياتك، فلا يمكن لمَركَبٍ أن يمضي في عُرض البحر وفوقه ساعيان لهدفين متنافرين، هذا يريد شطَّ الآخرة وهذا يريد شطَّ الدنيا الدَّنِية!

إذن فقد تكون الزوجة أو الزوج عقبةً في مسيرة الملتزم ولهذا فأول من سيحظى بأولوية تأثيرك هو هذا الشريك، أشرِكْه في شعورك في التزامك في إقبالك على الله، بذكاءٍ لا بعنفٍ أو شدةٍ، بمحبةٍ ولينٍ لا بغصبٍ أو تهديدٍ!

لا تجعل من التزامك سببًا في نفوره منك ولا سببًا في القسوة عليه بل على العكس اجعل هذا الشريك يشعر بأن التزامك منحةٌ في البيت، أنك أصبحت الأفضل والأروع، اقترب منه أكثر وأنت ملتزمٌ وداعٍ ومستبشرٌ، وأفهِمْه أنك لا تريد خسرانه ولا ضياعه ولا سوء خاتمته، وإن شعرت منه تجاوبًا فداوِم على الرقائق واستحضار المواقف التي يتصدَّع لها الحجر ويحن بها الفؤاد للفرار إلى الله، إن الهداية قد تكون في لحظةٍ، في موقفٍ، في دعاءٍ، فكن قناصًا للفرص!

أعتقد أن الشريك الذي سيألف التزامك كتغييرٍ رائعٍ في حياتكما جَلَبَ عليه المحبة والاستقرار، وأوسعَ مداركه بالتفكر والعلم والإبصار، لن يتأخر لحظةً واحدةً في الركوب في مركب النجاة، وقد تصادِفُ المغبون الذي حُرم هذا الفضل فلا أقل من المحاولة والدعاء له بالهدية والالتزام.

أولادك إن كنت أبًا أو أمًّا أقبِل عليهم بحنان الوالد الملتزم وشفقة المربي المسلم واستبشار العابد الراعي لرعيته، إياك وأن تصبح ذلك العبوس الغاضب بعد هذا الالتزام، دعهم يلتمسون الهدوء والحِلم والعطف والدعوة بلطفٍ، دعهم يحبون الإسلام والاستقامة، دعهم يستدركون ما فاتهم من وَحشةٍ، دعهم يقتربون معك إلى

الله، عوِّدهم الصلاة وفعل الخيرات، عودهم أجواء المساجد وتعظيم شعائر الإسلام، أبعدهم عن مستنقعات الفساد واملأ فراغهم بكل مفيدٍ ومَزيدٍ.

وفي الواقع إن أهم ما عليك الاستعانة به هو محبتهم وتقريبهم منك، ولا تلجأ لغيرها إلا إن لاحظت فشلًا تامًا في الإقبال معك إلى طريق الاستقامة، ومشكلة بعض الملتزمين هو ذلك التغيير المفاجئ العنيف الذي يبدأ مع الأهل والأطفال بشكلٍ لم يعتادوه فتكون النتيجةُ الخوفَ والفرار منه.

لكن لو أن المقبل أتقن فن التمهيد وفن التحبيب، لأحسن في التدرج والتعويض، لأقبل يجذبُهم إليه بالترغيب الحميد، فالأطفال عجينةٌ لينةٌ يُمكنك التأثير فيهم بسهولةٍ أما الشريك البالغ فهذا يحتاج لفنٍ في الدعوة، ادعُه وأنت لا تريد خسارته، ادعُه وأنت تريد سعادته، والصبر مفتاح الفرج في مثل هذه المُهمات، إياك والفتور، وإياك والتسليم، عليك بسد الفراغ، فمَنعُ الموسيقى والغناء في البيت لابد أن يوازيَه بديلٌ معقولٌ، كالأناشيد الإسلامية، واللعب واللهو بما حرّم الله يُفضَّل أن تعوضه برياضةٍ مفيدةٍ، كالسباحة أو الرماية أو ركوب الخيل أو ما ينفع المسلم وينفع أمته...

إن التعامل مع النفوس التي جُبلت على الفوضى والغفلة يحتاج لحكمة الطبيب، فالحديث عن الصالحين باستمرارٍ وقصُّ القصص المؤثرة في النفوس والتذكير بالآخرة وأهوال يوم القيامة والاستعانة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعظماء الإسلام والبحث عن المواد والوسائل الدعوية السمعية والبصرية سيسهل أمامك المهمة ولا شك أنها ستسهُل أكثر بصداقة عائلةٍ ملتزمةٍ وارتياد مواطن الصلاح والصالحين.

انتشِلْ عائلتك من تلك الجاهلية المزمِنة، علِّمهم أن ما فات كان وقد ندمتَ عليه وأن اليوم يوم العمل يوم الجِد، والسبب عظيمٌ جدًا، أولًا أن النجاة في النهاية لن تكون بدون صلاح العمل، وأن حال الأمة أضحى مزريًا يشفِق عليه المؤمن! أن الأمة بحاجةٍ لصحوتنا لإقبالنا لعودتنا لديننا حتى تعود هي لسيادة الأمم وتعود لتسطِّر الأمجاد وتلقن العالم كيف تكون روعة الإسلام وعبقريته وعدالته...!

أُخلُق في النفوس الهدف العظيم واسـقِ الهمم بالحِلم العتيد، حاول أن تزرع بذرة الأمل والمسابقة، ذكرهم بنبوءات الرسول صلى الله عليه وسلم، احفر في أذهانهم وعد الله الحق، ارسم في مخيلتهم القدوات الرائعة الحقيقية لا الوهمية التي زيَّنت تاريخ الإسلام، أحيِ فيهم عزة الإسلام، حينها فقط إن أحييتَها، سترتاح وتهدأ لأنهم سينطلقون بقوةٍ وقد يسبقونك!!

إن مفعول إحياء الهمم مفعولٌ عجيبٌ، إن إحياء الحنين لمجد المسلمين أمرٌ مثيرٌ!

يسري في جسد المسلم كالدماء يخفق معها القلب بشوق، متى نتخلص من حالنا البائس متى يُشار على أمتنا بالبنان، هكذا غيّر المسلمون من واقعهم حين استشعر كل فردٍ منهم، كل أسرةٍ منهم، واجبها وقامت تُقبِل إلى ربها إلى دينها إلى أمتها فكان ما أبهر العالمين!

فإن لم تكن ذلك السعيد الذي حظي بأسرةٍ أقبلت معه فلا تحزن ولا تبتئس فقد ابتُلي الأنبياء والصالحون وإنما الابتلاءُ بغربة الدين ووحشة الطريق رفعةٌ في الدرجات، ولكن لا تستسلم لا تيأس فإن مع العسر يسرًا وإذا أراد الله أمرًا فسيمضيه ولكن إياك أن تنجرَّ للفاشلين بل كن دائمًا ذلك القائد!

أما إن كنت الأعزب الذي لم يحصل بعدُ على سكن الروح واستقرار النفس، فإني أنصحك بكل صراحةٍ، أقبِل على الزواج وإياك وأن تتردد بسبب العمر أو الحالة الاقتصادية، فإن الزواج نصف الدين، وسيكون من أسباب عِفتك وصلاحك، سيكف عنك وساوس الشيطان وتلبيسات إبليس، أقبل على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، اعقِل وتوكل ومن عزم على العفاف كان الله في عونه ولكن تذكر تلك الوصية الذهبية من خاتَم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم:

(فاظفر بذات الدين ترِبَتْ يداك[٤٦])

---

[٤٦] متفق عليه.

إن الحب الذي تنشده لن تجده عند الحسناء التي نبتت في منبت السوء، ولن تجده عند حسناءَ لم تعرف محبة لله! بل ستجده عند حسناء الروح حسناء الفؤاد من عرفتْ ربها وأقبلت مثلك تبحث سعدَها، فلا تتعلق كثيرًا بشكلٍ معينٍ ولا ترسم في مخيلتك ملامحَ معينةً فإن وقع قلبك على روحٍ تواقةٍ مثلك ونفسٍ تستشعر ما تشعر به، فستجد الأُنس مرةً واحدةً... ستجد أن قصص الحب كلها لا تساوي لحظة صدقٍ واحدةٍ أقبلْتَ فيها مع تلك التقية المؤمنة!

ليس في الدنيا أكثر ولا أعظم خيرًا من قلب المؤمن وإن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق والنصر بل لا مقارنة بينهما، وإنك اليوم إن استعنتَ بالله وتزوجتَ، فإنك قد خطوتَ خطوةً متقدمةً في مسيرتك... تستقر معها نفسك ويخنس بها شيطانك، وتذكر أنك لن تختار زوجةً فحسبُ بل أمًّا لأبنائك من بعد، فأحسِنْ الاختيار تأمنْ على بيتك وذريّتك، وإن كنتِ أنتِ الفتاة الورعة المقبلة المستبشرة فاعلمي بأن الأقلام قد رُفعتْ والصحف قد جَفّت وأن ما كان في قَدَرك من زواجٍ قد قدَّره الله عليكِ من قبلِ أن تولدي، فلا تحزني أبدًا، فإن ما كان لك سيأتيك يومًا ولكن ما هو مطلوبٌ منك هو الأخذ بالأسباب وحسن الاختيار بمقياس الدين ومقياس الالتزام وكذا مقياس الهمة التي بها نحقق التغيير المنشود ونبلغ الأهداف السامقة!

إياكِ والتسرع أو العجلة، فالزواج للمرأة كالرزق فاسألي الله رزقًا حسنًا، زوجًا صالحًا، لتسكني بأمانٍ، ولا تقولي يومًا، ليتني استعنتُ بالله!

فكم من ملتزمةٍ فُتِنت بعد زواجها بزوجٍ لم يتقِ الله في إيمانها، وكم من زوجةٍ فُتنت في دينها حين خُدعت في زوجها! وكم من غريبةٍ شعَرتْ بوحشةٍ أكبر بعد زواجها، فليس كل زواجٍ هو الحل، وكونَكِ المرأة فعليكِ الحذر مرتين بدلَ المرة، فالرجل قد يسهُل عليه الطلاق وتكرار المحاولة أما أنتِ في مجتمع تعمُّه الفوضى وجاهليةٌ في الرأي وفسادٌ في الحكم قد يتعبكِ تكرار المحاولات، لهذا احرصي أن تنجحي من أول يوم في

اختيارِكِ ثم في حفظ بيتكِ وزوجكِ ولن تجدي أفضـــل من وصـــفة الالتزام الراقي لحفظهما، إن الله سيحفظ لكِ ما تحبين إن أنتِ داومتِ على ما يحبُّ!

سُئلت امرأةٌ ما سر محبة زوجها لها فقالت، هي صَدَقةٌ لم أَزَلْ أُخرجها، ودعوةٌ التزمتها في سجودي منذ تزوجته، اللهم اجعله قرة عينٍ لي واجعلني قرة عينٍ له، قالت، فلم أرَ منه إلا الحب ولم يرَ مني إلا كلَّ الحب!

فانظري لبصـيرة تلك العاقلة حين أدركتْ أحد أسـرار المحبة فلجأت إلى الصـدقة والدعاء، ولا شــك أن الدعاء لوحده غير كافٍ إن لم يُقرَن ببرهانٍ للمحبة بحسـن العِشرة والخدمة والاهتمام بالتودد والتبعل والقربى وفعل الصالحات!

كوني صالحةً يكُنْ صالحًا... كوني توابةً يكن توابًا، كوني فارَّةً لله، يكن فارًّا لله، كوني لله أقرب سيكون هو أيضًا الأقرب ولو بعد حين، إن شعر منك صدق المحبة والوفاء! وفي الحقيقة لم أرَ مؤمنًا تقيًا أو مؤمنةً تقيةً، خاسرًا أبدًا في علاقةٍ زوجيةٍ، لأن الزواج كان لله، للتقرب من الله، للارتقاء للعلياء فكان الزواج وسيلةً لغايةٍ عظيمةٍ لا هدفًا فحسب فإن لم يفلح هذا الشريك - رغم اجتهادكِ-في حفظ هذه العلاقة السامية وبصون هذا الميثاق الغليظ فهو ليس أهلًا له ولا يُؤسَف عليه وقد قال الله تعالى:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ). [٤٧]

إن الحديث عن أسرار السعادة الزوجية يستحق كتابًا مستقلًا لا صفحاتٍ في دفتر تخصصٍ في الالتزام، ولكننا نصل لخلاصة القول، أن الالتزام هو سرٌّ من أسرار سعادة الأسرة المسلمة، فهو يطرد عنها وساوس الشيطان ويحبط مكائده ويصرفها لطاعة الله وعبادته فتنعكس تلك الاســتقامة ببركةٍ في النفس والولد والمال والوقت وكل ما يحتاجه المرء من ضـروريات الحياة، إنها بحقٍّ، من أسـباب نجاح وسـعادة الأسـرة

[٤٧] النور ٢٦.

المسلمة، فالتزمْ والتزمي والتزموا جميعًا طريق الاستقامة، سدِّدوا وقارِبوا وحددوا الأهداف الراقية لهذا البناء، ولن يكون مآل هذه الأسرة إلا أثرًا في مجتمعٍ يتوق للنهوض من جديد، فكيف لو أن العدوى انتشرت في نسيجٍ من الأُسر وبدأت آمالنا تتحقق بأمثلةٍ وقدواتٍ تُضرب... إنها بحقٍّ بشرى ونصرٌ. قال سيد قطب رحمه الله... هذا الدين كالشجرة العظيمة، تَنْبُتُ شيئًا فشيئًا، صحيحٌ: أنها تمر عليها الريح، والشمس، وتلفحها الشمس، وربما يعتدي عليها الماء، لكنها تؤسس جذورها، هذا أشبه بالإسلام، ولكن الباطل: كالزُرعة التي تنبت كنبت الربيع، تقتلها الشمس، أو يجترفها السيل، أو تحطِّمها الريح.

فأنت فى دعوتك وفى غرس الإسلام فى بيتك ينبغى أن تغرسه كالشجرة رويدًا رويدًا حتى ينمو ويترعرع، ويؤتى أُكُلَه فاستعن بالله واصبر واعمل ولا تعجِز.

الفصل الثاني عشر: احذر الفتنة



ليس الالتزام مقتصـرًا على الإقبال على العبادات وترك المحرمات والصبر على الابتلاءات، إنما هو أيضًا تحصُّنٌ من الفتن وحفظٌ للنفس من الانزلاق في مستنقعات الزَّيغ والضلالة التي تتخفى بلَبوس الدين والاستقامة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا؛ يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا)[٤٨].

وإن أول ما عليك كملتزمٍ الحذرُ منه والتحصُّن منه هو مصادر العلم التي تتزود منها في مسيرتك، فلا شكَّ أنك ستبحث عن شيوخٍ ودعاةٍ يكونون لك بمنزلة المنارة تنير لك الطريق وتبسِّط لك المفاهيم وتلخص لك الزبدة والمفيد، ولكن تأمل معي لو أنك وقعت ضحيةَ شيوخٍ ودعاةٍ على أبواب جهنم كيف سيؤول بك الأمر؟! إما لانحرافٍ وزيغٍ وإما لانتكاسةٍ وتراجعٍ! وكلاهما شرٌّ محدقٌ بك إن أنت تساهلتَ في اتباع كل من نادى بلا إله إلا الله أو اتخذ الإسلام شعارًا أو لبس عباءةً وأطلق لحيةً!

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حديثًا يستحق التدبر والحفظ: (كان الناس يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافةَ أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهليةٍ وشَرٍّ، ثم جاء الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرٍ؟ قال: نعم، قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله! وهل بعد ذلك الشر من خيرٍ؟ قال: نعم، وفيه دَخَنٌ، قال: وما دَخَنُه يا رسول الله؟! قال: قومٌ يستنُّون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله! وهل بعد ذلك الخير من شرٍ؟ قال: نعم، دعاةٌ على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قال حذيفة: فقلت: صفهم لنا يا رسول الله! قال: هم قومٌ من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قال حذيفة: فماذا تأمرني يا رسول الله إن أدركني ذلك، قال: الزَم جماعة

[٤٨] رواه مسلم وأحمد والترمذي.

المسلمين وإمامهم، قال: فقلت: يا رسول الله! وإن لم يكن يومئذٍ للمسلمين جماعةٌ، قال: فِرَّ بدينك، ولو أن تعضَّ على أصل شجرةٍ حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[٤٩].

وصدقت نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ستجدهم اليوم في زماننا وبكثرةٍ، وقد يظهرهم الإعلام ويلمعهم، وقد يشتهر بعضهم حتى يَذيع صيتُه!

فدعاة الباطل والضلالة من العقبات الخطيرة في مسيرة الملتزم، عليك أن تعرفهم وتعرف صفاتهم وتبتعد عنهم تمامًا ولا تنشغل بالًا بهم، وابحث في أمتنا الغالية التي لا يزال فيها الخير إلى يوم القيامة، فستجد أهل العلم والفضل، الراسخين في العلم، العلماء الربانيين، الذين يتبعون سنة الحبيب صلى الله عليه وسلم بلا إفراطٍ ولا تفريطٍ، هم أئمة أهل السنة والجماعة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ). [٥٠]ولطالما كان لأئمة أهل السنة والجماعة الدورُ المصيري في هذه الأمة في حفظها من الضلالة والفساد، فهم الذين ينفُون عن كتاب الله تعالى تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، هم الذين يطمِسون معالم البدعة ويكسرون أصنام الفتنة، قال تعالى: (هُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ). [٥١].

فهؤلاء هم الذين أنت مطالبٌ بالاستماع إليهم ومتابعة محاضراتهم واجتهاداتهم والبحث عن مؤلفاتهم لا الغث والسمين.

---

[٤٩] أخرجه البخاري ومسلم.

[٥٠] رواه أبو داود والترمذي وصححه.

[٥١] آل عمران ٧.

في الواقع إننا نعيش في زمنٍ اشتدت فيه غربة الإسلام وأصبح المتمسك بالسنة منتقَدًا والملتزم بتعاليم دينه مستهجَنًا والمطالِب بعودة الشريعة حاكمةً مطاردًا! يَغُضُّ الطَرف عن أصحاب البدع والضلالة ويرفع من شأن أهل المعاصي والفسوق، ويتفاخر الناس في الذنوب وتعدي حدود الله، وهذا كله مؤلمٌ وبشعٌ! إلا أنه لا يؤثر في الملتزم الذي عرَف لذة الإيمان وحقيقة التوحيد والعبودية لله، بل سيزيد من تمسكه بدينه واعتزازه بالتزامه وسيرسخ لديه القناعات في أن الاستقامة هي السبيل، هي المخرج لا مُحدَثات الأمور، فالصورة واضحةٌ لمشهد الحق والباطل، ولكن ما نخشاه حقيقةً على الملتزم هو تلك الفتن التي قد تقطع عليه الطريق بلباس الدين، التي تخطف آماله وأحلامه فتبخرها في فضاء التيه والعبث، والتي تقذف بهمته إلى قاع بئرٍ معطلةٍ!

نعم فقد بدأت تُقبِل على ميدان التدافع بعد أن التزمتَ وأخذتَ هذا الكتاب بقوةٍ، وأول ما سيحزنك هو تلك الفُرقة التي فتَّتْ في عَضُد أمتنا المسلمة، هو تلك الجماعات الكثيرة التي تفرقت بها الأمة إلى كثيرٍ من الفرق، تنادي كلها بالإسلام ولا يحفظ بيضة الإسلام وتعاليم الإسلام كما أرادها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إلا القلةُ القليلة العاملة منها. ولهذا فإن أخطر شيءٍ على الملتزم هو الانحراف إلى تياراتٍ ظاهرها إسلاميٌّ في حين باطنُها البدعة والضلالة، تزيّنها الشعارات الرنانة ولكن أصلها الانحراف عن السبيل المستقيم التي رسمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذرنا أن نتبع غيرها من السبل فنَضِل ونهلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ستفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدةً... ما أنا عليه اليوم وأصحابي). [٥٢]

وهذا الوصف يُشخِّص الأسباب التي جعلت أمتنا الإسلامية اليوم في حقبة ظلامٍ وتقهقرٍ، إنها الفرقة والتفرق، إنه البعد عن جادة الطريق إنها باختصارٍ الفتنة.

---

[٥٢] حديث حسن.

إن مسألة تعطيل أحكام الإسلام وتعاليمه، وموالاة أعداء الإسلام شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ وانتشار الفسوق والعصيان وبعد الناس عن العمل بالشريعة ليست قضيةً نخشى منها على الملتزم، لأنها صورةٌ واضحةٌ عن الحقيقة المؤلمة، عن صراع الحق والباطل، والتي يقينًا يعلم الملتزم بأن الله، في نهاية المطاف، سينصر أهل الحق ويخزي أهل الباطل، ولكن ما نخشاه بحقٍ على الملتزم هو تلك الفتنة التي تأتي في هيئة ما يبحَثُ وما يريدُ.

ولنا مع هذ الخطر العظيم في طريق الملتزم وقفاتٌ، وربما خلاصة مفاهيمَ لابد أن يجمعها ويتأمل فيها ويعرفها أحسن المعرفة قبل أن يصطدم بعالم التدافع الذي ينتظره بعد الالتزام... وحتى يحفظ نفسه على الاستقامة كما أرادها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا يَنقُضَ غزله ولا يُحبِط عمله:

- حين تُقبِل على وسط الملتزمين قد تجد الكثير مما يحزنك أو يسوؤك أو يؤلمك ولكن عليك أن تدرك أن الهداية الحقة على خطى رسول الله صلى الله عليه وسلم هي فضلٌ عظيمٌ من الله وأن الله وحده يعلم مقياس الالتزام الحقيقي لكل فردٍ، وأن السباق في ميدان الملتزمين على أشُده دائمًا، وأنه من الطبيعي جدًا أن تنزعج من أحدهم أو تتأذى من آخر، فالنفوس البشرية انقسمت لنفوسٍ مطمئنةٍ وأخرى لوامةٍ وأخرى أمارةٍ بالسوء وستصطدم لزامًا بإحداها في مسيرتك، فاحرص أن تحفظ نفسك من كل ما يدفعها للانحراف، للتراجع، للضياع، ثم إياك والتأثر بالناس، فكما يقال، لا تعرِفْ الحق بالرجال، اعرِفْ الحق تعرِفْ أهله، فلا تَتَّبع أحدًا في الحق بل ابحث عن معالم الحق وآثاره واتبِعْها، قال شيخ الإسلام:" كما أن خير الناس الأنبياء، فشرُّ الناس من تشبّه بهم من الكذابين، وادعى أنه منهم وليس منهم. فخير الناس بعدهم: العلماء والشهداء والمتصدقون والمخلِصون، وشر الناس من تشبه بهم يوهِم أنه منهم وليس منهم ."وهذا من أسباب الانتكاسة لدى بعض الملتزمين، يتبعون شيخًا أو داعيةً بعينه، فربما سلك هذا الأخير في أول أمره على الصراط المستقيم، لكنه انحرف عنه

في آخر عُمره وقد يضِل تمامًا ويهلك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكونَ بينه وبينها إلاَّ ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها[٥٣] "وكذلك العكس قد يسلك الرجل بعض سبل الشيطان في أول أمره ثم تتداركه رحمة الله فيسلك الصراط المستقيم في آخر عمره فترى منه العجب من صدقٍ وعملٍ. ولكنْ تبقى الاستقامة عَلَى الصراط المستقيم من أول السير إِلَى آخره، هي بحقٍ الفضلَ العظيم من الله، فطوبى لمن نالها. ثم لا تضطربْ إن رأيت من يرجع في أثناء الطريق أو ينقطع، وذلك لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، فدَعْ الخلق للخالق واحرص على إنجازاتك والتزامك وحفظ بنيانك، وتدبر في (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)[٥٤] و (وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ)[٥٥].

- أن أئمة السنة والجماعة وأهل العلم والإيمان يتميزون بالعدل وقوة الحجة؛ فيعلَمون الحق الذين يكونون به موافقين للسنة، سالمين من البدعة، ويعدِلون عمن خالفهم وإن آذاهم وظلمهم، هدفهم الأول هداية الخلق والرحمة بأمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعلى هذا الوصف احرص أن تكون وأن يكون من تُصادِق أو تتعلم منه.
- اعلم أن أكثر ما يُفسد الناسَ على مر العصور وتعاقُب الفتن،" نصف متكلمٍ، ونصف فقيهٍ، ونصف نحويٍ، ونصف طبيبٍ؛ هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد اللسان، وهذا يفسد الأبدان ."فاحذر هؤلاء وترفَّع عن مجالسِهم.
- أنك ستبصر اختلافًا كبيرًا بين الجماعات الإسلامية وأصحاب الشعارات الدينية بل تطاحنًا وتدابرًا، فلا تخُضْ بجهلٍ فيه حتى تحمل القسط الوافي من العلم الذي

[٥٣] أخرجه الشيخان وغيرهما.

[٥٤] إبراهيم ٢٧.

[٥٥] الواقعة ١٤.

يؤهلك للنقد أو التمييز أو الانخراط... فلابد" أن يكون مع الإنسان أصول كليةٌ يرد إليها الجزئيات، ليتكلم بعلمٍ وعدلٍ ثم يعرف الجزئيات كيف وقعتْ، وإلا فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئيات، وجهلٍ وظلمٍ في الكليات."وإياك والانجرار خلف الرويبضات والمتعصبين بجهالةٍ.

(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلًا)[٥٦]

- وانظر دومًا في قوة الحجة والدليل في ميزان الشرع الحنيف، قال تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) [٥٧]
- ومع الأسف فإن أكثر خلافات الجماعات الإسلامية نفسيةٌ، تنادي جميعها بشريعة الله إلا أنها لم تفلح في توحيد صفوفها حتى ولو من باب التعاون على البر والتقوى، وانفصلتْ كل جماعةٍ بقناعاتها وانشغلت بالدعاية لمنهجها في حين فاتها أن الأمة لن تقوم لها قائمةٌ ولن تتجاوز هذه النازلة، دون وحدة كل هذه الجماعات التي رفعتْ راية الإسلام ونادت بعودة الشريعة الغراء، ولهذا فخيرٌ لك ألا تنشغل بالاختلافات التي تضيع الوقت وتشغل البال وتخلق التعصب والأحقاد. بل خذ موقع المحايد الذي يزن القول فيتبع أحسنه، الذي ينصف الخصم كما ينصف الصديق، الذي لا يبتغي إلا مرضاة ربه ومصلحة أمته، الذي يبحث كيف يجمع المسلمين لا يفرقهم بعصبيةٍ وحزبيةٍ، بهذه الطريقة ستنصر الحق أينما أبصرته وستخذل الباطل أينما لمسته...
- اجتنب التعصب لمسائلَ معلقةٍ أو غير محسومةٍ، فمسائل الاجتهاد لا يسوغ فيها الإنكار إلا ببيان الحجة وإيضاح المحجة والتعصب في هذا الأمر جهالةٌ وظلمٌ للنفس

---

[٥٦] النساء ٨٣.

[٥٧] النساء ٦٥.

ومع الأسف فإن الكثير من حلبات المواجهة تنشغل في أمور الاجتهاد بلا حجةٍ معتبرةٍ، وكذلك حال مسائل الاختلاف التي لم يحسِم أمرَها أئمةُ الإسلام منذ غابر الأزمنة فاتخذها البعض عصبيةً لا يرحمون فيها مخالفًا، وتناسَوا أن الاختلاف في أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم رحمةٌ، ودين الله يَسَع كل هؤلاء المجتهدين فلمَ الحجر ضيقًا.

- لابد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر؛ العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده.
- أن الوسطية في الإسلام تعني ألا تكون في إفراطٍ ولا تفريطٍ، لا مع الغلاة ولا مع المرجئة، فاحذر الفئتين وإياك والانجرار إلى حبالهما، فتنقض غزلك وتنحدر في ظلمٍ لنفسك ولأمتك. ابحث عن أعراضهما في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ومصنفات العلم لتبصرها وتتحصن منها.
- أن الجاهل بمنزلة الذباب الذي لا يقع إلا على العقير، ولا يقع على الصحيح. وأنَّ مَنْ طَبْعُه طَبْعُ الذباب أولى أن تَنفِر منه وخير الناس المنصفون والإنصاف حلة الأشراف. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الجاهل بمنزلة الذباب الذي لا يقع إلا على العقير ولا يقع على الصحيح والعاقل يزن جميعًا هذا وهذا".

قد تكون الرحمة المطلوبة لا تحصل إلا بنوعٍ من ألمٍ وشدةٍ تلحق بعض النفوس.

أن في المؤمنين من يسمع كلام المنافقين ويطيعهم؛ وإن لم يكن منافقًا، كما قال تعالى (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) [٥٨]فلا تنجرَّ للفتن ولا تشارِكْ في فتنةٍ، ترفَّعْ عن مكائد المنافقين

- أنه في الواقع ورغم مرارة الحال التي وصلت إليها أمة الإسلام اليوم، إلا أن استقراء أحوالها يجعلنا ندرك أنها أمةٌ بناءةٌ، قادرةٌ على النهوض والرقي، بل يشهد لها التاريخ أنها تنال في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما تناله غيرُها من الأمم

[٥٨] التوبة ٤٧.

في قرونٍ وأجيالٍ، ويُرجع المتبصـرون ذلك إلى أن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه. لهذا (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ). [٥٩]

- أنه مهما اشتد ظلام العصر الذي تمر به أمة الإسلام ومهما آلمك واقع المسلمين فإنه (لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك). [٦٠]

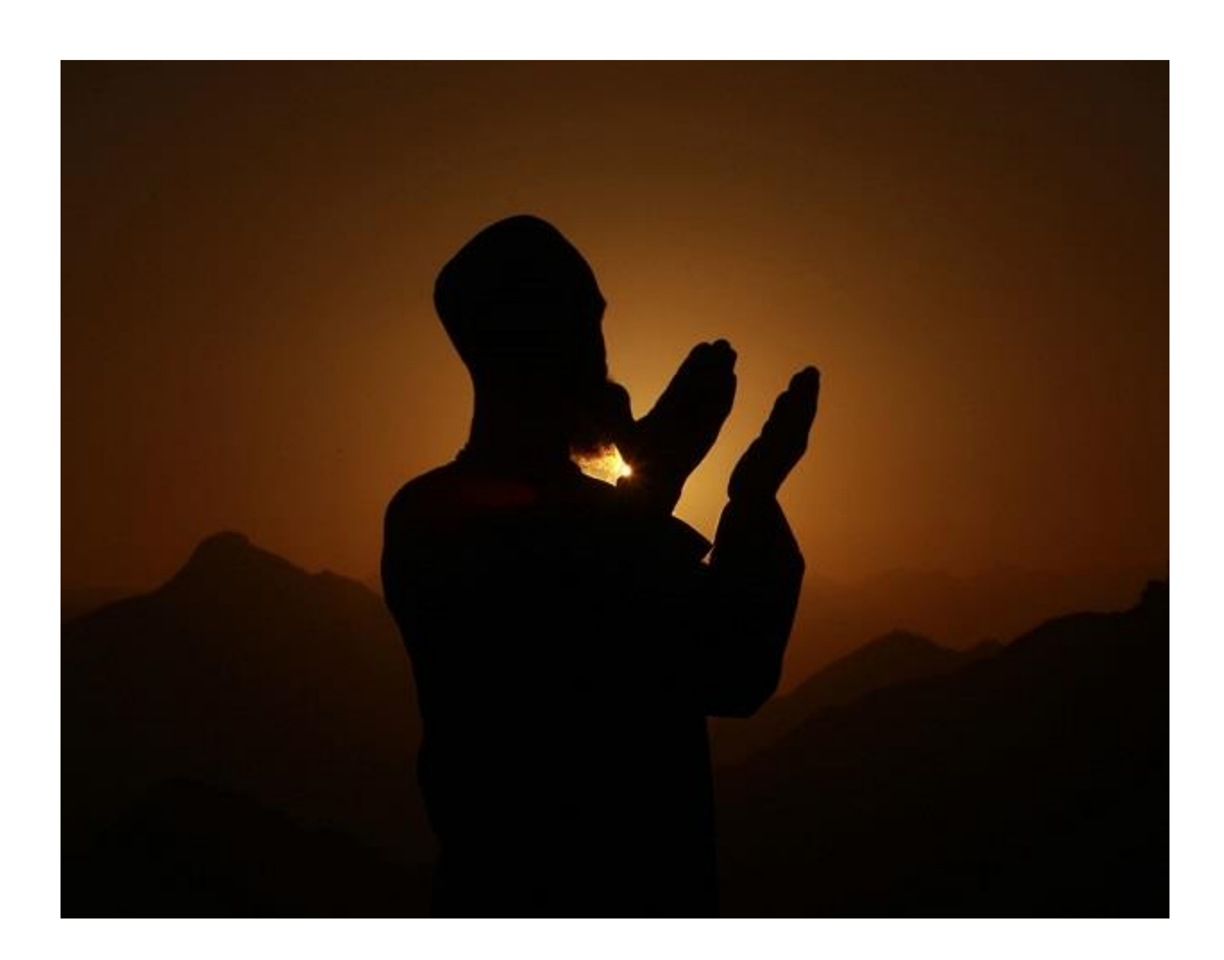
ولا شك أن الاستقامة والثبات أول صفات هؤلاء الذين تولاهم الله بحفظه ونصْرِه ولا شك أن أمر الله آتٍ ونافذٌ فاعمل لذلك اليوم ولا تشغلْك الدنيا عن وعدٍ هو الحق.

---

[٥٩] آل عمران ١٣٩

[٦٠] رواه البخاري ومسلم.

الفصل الثالث عشر: هل من وقفة محاسبة؟



الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، قد أصبحتَ اليومَ من فرسان الالتزام ممن أخذ أمر الدين بجدٍ وتحولتْ معه حياته إلى عبادةٍ ومسابقةٍ، ولكن لابد من وقفة محاسبةٍ لما فات ولِنحدد حقيقة مقياس الالتزام الذي وصلتَ إليه، ثم نتمكن من تحسس الثغرات وسدها وكذا تصحيح المفاهيم الخطأ وتعديلها.

إن إطلاق كلمة" ملتزمٌ "يرادفه في عصورٍ مضَتْ مصطلح" صالحٌ "ففلانٌ الملتزم في عصرنا يعني في ذلك الوقت فلانًا صالحًا، عُرف بعبادته وحسن خُلُقه وصحبته الطيبة وسمعته الخيّرة بين الناس.

وحين نتأمل في الصالحين في تاريخنا الزاخر، نجدهم أقوامًا علِموا فعمِلوا، وبارك الله في علمهم وعملهم فظهر أثره على الأمة برمتها وانتفع المسلمون من إنجازاتهم، في حين تعاني أمتنا اليوم مسألة الصدق، فعدد المتعلمين كبيرٌ جدًا ولكن عدد العاملين قليلٌ جدًا، ولاشك أن النوايا تمحق البركة إن كان هذا العلم للشهرة أو التجارة، وليس لخدمة الإسلام ورقي الأمة، ولهذا فإن غفلةً مثل هذه يطبع الله بها على القلوب ويحرمها لذة الإيمان وحلاوة الفرار إلى الله، فتكون كالآلات، تردّد العلم وهي أبعد ما يكون عنه.

وقد حذرنا الله سبحانه من هذا الصنف فقال:

(كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)[٦١]

وقال (وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ)[٦٢]

وقال (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) ...[٦٣].

وهذا ما يعكس حقيقة الالتزام، فهو ليس بكمّ العلم الذي تعلمتَه أو القبول والشهرة

---

[٦١] الصف ٣.

[٦٢] آل عمران ١٨٨.

[٦٣] البقرة ٨٥.

التي قد تحظى بها، بل بكمِّ العمل الذي ترجَمَه هذا العلمُ، هذا هو مقياس الالتزام حق الالتزام، ولأننا في زمنٍ غلَب فيه الرياء والعجب بالنفس وحب الرياسة، فإن الوقوع في مثل هذه المفسدات لمقياس الالتزام عقبةٌ حقيقيةٌ أمام أي ملتزمٍ، وقد ينجو المرء من الأولى ولا ينجو من الثانية أو الثالثة، فهل أدركت مناط الأمر الآن؟!

قال تعالى: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)[٦٤] وصدق الله العظيم، إن الطغيان مفسِدٌ لمقياس الالتزام وإن الله بصيرٌ بعباده أعلم بهم وبطبائعهم.

وأنت في الواقع بين خطر الطغيان وخطر التقصير، وكلاهما عقبةٌ في مسيرتك وجب عليك تداركها ومعالجتها.

وحتى نقيس درجة التزامك، لنقف وقفة محاسبةٍ لإنجازاتك منذ التاريخ الذي التزمت فيه وننظر: كم من القرآن حفظتَ؟ كم من التفسير عقِلتَ؟ كم من الثقافة والعلم اكتسبتَ؟

هل من أعمالٍ دعويةٍ أنجزتَها؟ هل من أعمالٍ خيريةٍ تطوعتَ لها؟ كم من العبادات أتقنتَ؟ كم من التغيير حققتَ؟!

كيف أصبحتْ أخلاقُك، كيف هو سلوكك بين أهلك وأصحابك ومحيطك؟ كيف هي صلتك برحمك؟ لأي درجات التواضع ارتفعتَ؟ كم من الزهد والورع تشبَّعت؟ كم من العفو والإحسان سجلت؟! هل أنت المسابق بالخيرات أم ممن أخبرنا عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم: أنه لا يزال أقوامٌ يتأخرون حتى يؤخرهم الله[٦٥].

كيف هو خشوعك؟ كيف هي نوافلك؟ كيف هي اجتهاداتك؟ هل ذقتَ لذة صلاة الليل أو صيام التطوع أو الصدقات والتبرع؟! هل كفِلت يتيمًا؟ هل فرَّجت كرب مسكينٍ؟

---

[٦٤] هود ١١٢.

[٦٥] رواه مسلم.

هل يسـرت أمر معسـورٍ؟ هل أصلحت بين الناس؟ هل أحسـنت الجيرة...؟ كيف بِرُّك بوالديك؟ كيف حرصك على المسجد؟

كيف أنت والأذكار؟ أما زلت تداوم على أذكار الصـباح والمسـاء؟ أما زلت تحرص على الاستغفار؟ كيف أنت وحِلَق الذكر والدروس والمحاضرات؟ كيف هو بصرك؟ وكيف هي مجالسك؟ تشغلها اهتماماتٌ عظيمةٌ أم غِيبةٌ ونميمةٌ؟

كم من الوقت يمضي في الفكاهة وكم يمضي في أمورٍ جادةٍ؟!

كيف هو أكلك ونومك وسهرك؟

هل قرأتَ لابن القيم؟ هل قرأت" الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"، هل ازداد إقبالك على القراءة المفيدة؟ كم من الكتب قرأت؟ هل وجدت القدوة الصـالحة التي أثرت فيك؟

كم من الذنوب أقلعت عنها وكم من الأخطاء تُبت منها؟ كم من الكبوات تجاوزتها؟

هل دعوت لمعروفٍ، هل دعوت للالتزام؟ هل دعوت للإسلام؟

هل تفكرت في مشـروعٍ مفيد للأمة ؟! ماذا قدمت للمسـلمين المسـتضـعفين؟! هل يعجبك مدح الناس وثناؤهم عليك؟ هل تبحث عن رأيهم فيك باهتمامٍ بالغٍ؟! هل تحب أن يعرف الناس اجتهاداتك؟ هل لك من عباداتٍ وأعمالٍ صالحةٍ سريةٍ لا يعرفها أحدٌ؟!

هل تدبرت... ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ... [٦٦] هل تستطيع أن تتذكر آياتٍ وقعَتْ في قلبك كل موقعٍ وأثرت فيك فدمعت عيناك وأجهش قلبك رقةً وانكسارًا لمولاك!

---

[٦٦] الحديد ١٦.

هل ظلمتَ أحدًا؟! هل يَحيك في صدرك موقفٌ ما أو قولٌ ما أو تصرفٌ ما!

ماذا تعني لك (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). [٦٧]

هل قرأت في كُتُب أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، هل تعرفت على أحاديثَ لم يسبق لك معرفتها، هل تدبرت قوله صلى الله عليه وسلم: (تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأيُّ قلبٍ أُشربها نُكت في قلبه نكتةٌ سوداءُ، وأي قلبٍ أنكرها نُكت فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتى تصبح على قلبين: على أبيضَ مثل الصفا لا تضره فتنةٌ مادامت السماوات والأرض، وعلى أسودَ مربادًّا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه)[٦٨].

هل فقِهت قوله صلى الله عليه وسلم: (لأن يهديَ الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم) [٦٩]

هل بحثت في آثار صحابته الكرام من بعده، هل وعَيْت حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: (أن العبد إذا نُشر له ديوانه وأُقيم له ميزانه جاءت أعمالٌ كالغمامات فيقول يا رب ما هذا؟ فيقول سنن هَديتَ إليها كان لك كأجر من عمل بها).

إن أجبتَ على أكثر هذه الأسئلة فقد علمتَ الآن ماذا حققتَ، إلى أي درجةٍ تغيرتَ، وفي أي حالةٍ أنت، هل طغيت أم قصرت أم حقًا... استقمتَ باجتهادٍ!

إن هذه المحطة من المحاسبة تجعلك تُقَيّم حقيقة التزامك وتدرك فيها ما ينقصك، ولا شك أن أي نتيجةٍ وصلتَ إليها تستلزم منك مراجعةً وتجديدًا للنية.

---

[٦٧] القصص ٨٣.

[٦٨] رواه مسلم.

[٦٩] صحيح البخاري ومسلم.

ابتدئ من الإخلاص لله تعالى الذي لابد أن يكون همّك الأول، فلا يُعذب المرء ولا يُفتن بشيءٍ كالإخلاص، يعذب حتى يصبح ذلك دليلًا على صدقه وإرادته لله سبحانه وتعالى، فقد تخرج من بيتك فتتزاحم الخطرات والوساوس لقلبك من المدح والثناء لحالك، ولربما زاد الطينَ بِلةً تزكيةُ الناس ومدحهم لك... وهكذا قد تُفتن في طريق التزامك في باب الإخلاص، وتصاب بعجبٍ في النفس ورياءٍ، ولإغلاق هذا الباب تذكر أن هناك من سبقك لمراتب عاليةٍ بإخلاصه وخشيته من الرياء وأن عليك الحذر من ثناء الناس لأنه قد يفسد عليك إخلاصك فلا تَنْسَقْ خلفه ولا تهتم به واجعل جل همّك إرضاء مولاك.

ثم بعد هذا التجديد للنيّة، عزز الهمة وتعامل بذكاءٍ مع عقباتك النفسية، فأقبل على بعض التغيير في البرنامج التعبدي... أضِف بعض الاجتهادات واستبدِل بعض القُرُبات، لتنزعَ عنك كل فتورٍ ومللٍ، وتدخِلَ التجديد وألوان الخير إلى حياتك، التحِق بحلق الذكر لتنهل من بركتها وتستأنس برفقتها وتستقيم بعلمها... قال صلى الله عليه وسلم (ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفَّتْهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) [٧٠]وفي حديثٍ آخر (يُقال لهم قومًا مغفورًا لكم قد بُدلت سيئاتكم حسناتٍ، قال مَلَكٌ من الملائكة: يا رب فيهم عبدك فلانٌ ليس منهم، وإنما جاء لحاجةٍ، فقال الله عز وجل: وهو قد غفرت له معهم، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم).

اخرج بقرارٍ جديدٍ بالاستكثار من الأعمال الصالحة وتنويعها، حدد هدفًا جديدًا مختلفًا تنجزه، كصدقةٍ جاريةٍ أو كفالة يتيمٍ، أو توزيع صدقةٍ في مكانٍ لا يعرفك فيه أحدٌ! أي عملٍ صالحٍ تتقرب به إلى الله يكون جديدًا لم تُقدِمْ عليه من قبلُ، وأضعف الإيمان، سجدةٌ! فهل جربت أن تسجد لله في مكانٍ لم يسجد فيه أحدٌ قبلك أو خطر على قلبه أنه يمكنه السجود فيه، فإن خطر في قلبك هذا الأمر فبادرْ للسجود ولا

---

[٧٠] رواه مسلم.

تتأخر، يكن لك ذخرًا عند الله وفيه من الشعور العظيم ما الله به عليمٌ، جرِّبه يومًا، في أرضٍ لم يسكنها البشر أو في ساحل بحرٍ مهجورٍ لا يرتاده أحد، في شطٍّ يعرف المد والجزر، أو جزيرةٍ صغيرةٍ أو صخرةٍ كبيرةٍ في البحر، في أي مكانٍ لم يسبق أن سجدتَ فيه وناجيت ربك بِدُعاء عبدٍ صادقٍ خاشعٍ مخلِصٍ محبٍّ يرجو رحمة ربه ورضوانه! صلّ فيه ركعتين أو اسجد فيه سجدة شكرٍ وتقرَّب من مودِّعٍ، لترى طعم تلك العبادة حين تُخلِصها لله ولا يدري عنها بشرٌ في الأرض إلا ملائكة السماء.

قد يهون العمر إلا ساعةٌ وتهون الأرض إلا موضعٌ...

قال الله عز وجل في الحديث القدسي: (ما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئِن استعاذني لأعيذنه، ولئِن سألني لأعطينه) ... ويا لَعظَمة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف فقِهوا المسابقة، كيف أعيى الصدِّيقُ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهما، في جميع أبواب المسابقة، فانظر في تلك المواقف العظيمة لهم لتدرك سر تفوقهم على بقية الخلق! من تسابقوا في خدمة امرأةٍ عجوزٍ عمياءَ وهم الخلفاء العظماء!

اعتمِر أو أدِّ فرض الحج إن استطعت، سافر لمناطق شهدت معارك المسلمين التاريخية، اقرأ عن سيرة بطلٍ من أبطالها تدبرها وتبصر في معالم النجاح فيها... اجعل سياحتك عبادةً، كن باحثًا كن عارفًا لا تركن لمللٍ... كن متفكرًا متدبرًا مستنيرًا.... اختلِق الأعمال والمشاريع النافعة في حياتك حتى لا تجد وقتًا للسأم، بل تعجبُ لمن يجدُ وقتًا لمثل هذا في حياته وهو مسلمٌ مَنَّ الله عليه بقرآنٍ وهمةٍ تواقةٍ... ففي أسوأ الظروف، لا بطالةَ مع مسلمٍ يحمل كتاب القرآن في يده!

زر المستشفى حيث يرقد المرضى في حالةٍ ميؤوسٍ منها، لا يهم أن تعرف أحدًا منهم، زر مريضًا تجهلُ من يكون! تأَمَّل فيمن ينتظر الموت ولم يبق له أملٌ في الحياة، كقسم

أمراض السـرطان مثلًا، لتتفكرَ في نعم الله عليك فتشـكره وتقترب أكثر ولتكسـب أجر زيارة مريضٍ وتذكرة مودِّعٍ.

هنا تتوقف صـفحتنا في مقياس الالتزام، لتسـتدركَ لا لتُحبطَ نفسَـك، لتنطلقَ لجِدٍّ أكثر فما هو آتٍ أعظم.

انظر فيمن سـبقـك لا من تخلَّف عنك... حين يكون الأمرُ أمرَ دينٍ وأمةٍ! وانظر فيمن حُرم ما لديـك ومُنع مـا تملِـك، حين يكون الأمر أمر دنيا ومادةٍ.

الفصل الرابع عشر: موقعك من هذه الأمة



الاستقامة لها ثمراتٌ ولها غاياتٌ... ثمراتها تظهر عليك وعلى أمتك، وغاياتها تتلخص في غاياتك لنفسك ولأمتك...

لا يمكن لمن عرف درب الاستقامة أن يعيش بمعزلٍ عن هموم أمته، بل إن الاستقامة تدفعك دفعًا لتَحمِلَ مسؤوليتك كفردٍ في أمتك.

تأمل في سير الصحابة والصالحين، كان لاستقامتهم كل الأثر في أمة الإسلام، شهد التاريخ بركات هذه الاستقامة لتصل إلى آفاق الأرض تبسط عدالة الإسلام في ربوعها وتُعلِّم البشرية كيف صنع الإسلام من هممٍ بشريةٍ لم تختلف عن البشر إلا بإيمانها ودينها.

هكذا كنْ.

كن صاحب الأثر في أمتك، من يتحسس الثغرات فيسدها... من يبحث العلاجات فيكون سببًا في تحصيلها، كن المصلح فإن الأمة بحاجةٍ ماسةٍ اليوم للمصلحين... لجهود كل الملتزمين... من أدرك الداء وعلم أين الدواء، من عرف لِمَ خُلق وعلم دوره في الحياة...

إن الأمم تُخلق وتندثر ولكن، يبقى أثر حضارتها في التاريخ يؤكد صلاح عملها أو فساده، ولم تتمكن أمةٌ في تاريخ البشرية من تحقيق قمة العدالة والازدهار في العالم كما حققتْه أمة الإسلام، خير أمةٍ أُخرجت للناس.

ولكن هذا الإنجاز وهذا السبق لم يكن دون قلوبٍ مؤمنةٍ واعيةٍ مسؤولةٍ تواقةٍ باذلةٍ ومسابِقةٍ...

ليكن لك موطِأُ قدمٍ في مسيرة هذه الأمة، ليكن لك أثرٌ لا ينمحي... لتكن لك بصمتك، ليكن لك الدور الفعال في نهوضها من جديدٍ وترميم بنيانها وتمهيد الطريق لقيادتها الأممَ مرةً أخرى.

لا تنظر بتشاؤمٍ لمشهدٍ يكسوه الظلام اليوم، ظلام النفوس البشرية التي حملت الإسلام اسمًا لا عملًا، مَنْ رَكَنَتْ ركونَ المتخاذِل وتركَتْ طريق النور الذي يوصِل لسعادة الأمم.

لا تستصغِر جهدًا يُبذل منك فإن نهوض الأمة يكون ببركات الجهود المتضافرة، فلو عقِل الناس هذه الحكمة، لما استصغر أحدٌ إماطة الأذى عن الطريق.

قد تقول، وماذا يمكنني أن أقدم أنا العبد الفقير في بحرٍ متلاطم الأمواج تقوده قُوًى عالميةٌ جبارةٌ، قد أحكمت قبضتها على أمتنا المكلومة ونجحت في تقويض كل فرص الصعود والتحرر من جديدٍ.

أقول، عليك إذًا بدراسة سنن قيام الدول وزوالها عليك بالإحاطة بأسرار النصر والهزيمة، فما زالت تنظِّم هذا الكون سننٌ ربانيةٌ تواتَرَتْ في تاريخ الوجود، ما زالت تتكرر مع كل قومٍ وزمنٍ ليكون المآل معها بفضل الله نصرًا لأهل الاستقامة وخزيًا وذلةً لأهل الطغيان والغفلة.

واعلم أن الله لم يكلفك بتحمُّل مسؤولية قيادة الأمة، بل حمَّلك ما تستطيع تحَمُّلَه، الإصلاحَ ما استطعت، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها أما النهايات فقد تكفل الله بها، (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)[٧١].

فكِّر ماذا ينقص الأمة في هذه الحِقبة التي توالت فيها النوازل، من ضعفٍ في كل النواحي... من مهانةٍ في عيون سائر الأمم، من استضعافٍ للمسلمين، وابحث ماذا يمكنك أن تقدم.

[٧١] الشورى ١٥.

أحصِ قدراتك وطاقاتك، ابحث ما يمكنك أن تكتسبه من علومٍ ومهارات في سبيل عطاءٍ أفضل، ارسم خارطة أهدافٍ لك، تطمح لتحقيقها، وإياك وشعور البَخس.

إن العمل قد تراه بسيطًا ولكنَّ صِدقَ نيتك قد يجعله مشروعًا عظيمًا، ينفع المسلمين، وتذكر أن رأس مال صفقتك هو الإخلاص.

لا يمكننا أن نحصر المشاريع والأهداف التي يمكنك العمل عليها، فهي كثيرةٌ ومختلفةٌ تختلف بحسب قدرتك وما تَهَيَّأَ لك من الأسباب، بحسب موقعك وما تهيأ لك من الوسائل...

فأنت أدرى بما يمكنك تقديمه، ولا يمكن لأحدٍ آخر أن يدلك على ما يمكنك فعله، لأنك الأقدر على معرفة ذاتك وقدراتك، ابحث عنه أنت حتى تعطيه كُلَّكَ، لا تنتظر أن يَدُلَّك عليه أحدٌ فلن يكون أشد شوقًا منك إلى أدائه ولن يترسخ كقناعةٍ عنده أكثرَ مما هو عندك.

ولأُسَهِّلَ لك السبيل لهذا الإنجاز العظيم ألا وهو التأثير في أمة الإسلام لتتجاوز محنتها، فإني أختصر لك الأمر في طريقين، الأول: أن تبحث عن عملٍ نافعٍ صالحٍ قد انطلق العمل عليه فعلًا، وخلْفَه تسهر هِمةٌ أو هِممٌ مدرِكةٌ، فتنضم إليه بِهمتِك لتقوى سوقُه ويشتدَّ أكثر ويكون إثمارُه أقرب. والثاني: أن تبحث عن عملٍ نافعٍ صالحٍ، يكون له الأثرُ في هذه الأمة، يمكنك العمل عليه لوحدك أو دعوة من يعينك عليه.

أما الأولى فتحتاج منك البحث والتبصر في العاملِين... وأما الثانية فتحتاج منك التفكر والتلمس لحاجات المسلمين التي يمكن أن يكون لك فيها الأثر.

قد يكون في ميدان العلم أو الدعوة إلى الله وتذكرة المسلمين، أو خدمة المستضعفين منهم ومساعدتهم، أو ميدان الإعلام أو ميدان الاقتصاد، أو ميدان الطب، أو ميدان التكنولوجيا، أي ميدانٍ يمكنك أن تقدِّم فيه بشرط أن يكون الهدف من العمل فيه هو خدمة أمة الإسلام، هو تقوية بنيان أمة الإسلام... هو عودة أمة الإسلام لقوتها

وازدهارها وحريتها، فأقبل عليه مخلِصًا لله مستعينًا به متوكلًا عليه ولا تبالِ بعدها لما يمكن أن تحصِّله، فإنما أجرك على الله ولكل امرئٍ ما نوى، أحسِن العمل وأتقِنه ولا عليك بالنتائج إنما النجاح من عند الله هذه حقيقةٌ حفرَتْها التجارب في صدور العاملين، وإنها من قواعد العمل في سبيل الله.

نحن اليوم نبحث في ثمرات هذه الاستقامة، نبحث عن أهدافٍ نبيلةٍ سامقةٍ يحقّقها الملتزم الذي أفلَتَ أو تجاوز شِراكَ شياطين الجن والإنس بصدقه في الطلب وجِدّه في العمل ومجاهدته للنفس ومسابقته للهمم.

إذن فلتكن الغاياتُ نظيفةً من كل رياءٍ أو علوٍ في الأرض... ولْتتأمل معي، لو أن هذه الدنيا كانت تساوي جناح بعوضةٍ ما سقى الله فيها الكافر شَربة ماءٍ؟! فكيف تجعل أهدافك دنيويةً، إذًا، لابد أن تكون أهدافك أسمى وأعلى.

لابد أن توظف هذه الدنيا لبلوغ العلياء، لابد أن تكون هذه الدنيا وسيلةً لا غايةً، فإنها لا تساوي شيئًا من نعيم الآخرة لمن آمن وصدَّق. فهل تشقى وتكِدُّ وتعمل لتصل إلى هدفٍ دنيٍّ زائلٍ أم تستعين بهذا الزائل لبلوغ مراتب الخلود والسعادة الأبدية.

كن ذكيًا في تحويل الإنجازات الدنيوية إلى صفقاتٍ رابحةٍ أخويةٍ، ولهذا أنت بحاجةٍ لوصفةٍ تحتاج منك الحفظ، تحتاج منك العمل، تحتاج منك الحرص المتين عليها، إنها وصفة الإخلاص والصدق والإتقان، ثلاثيةٌ متلازمةٌ، فإن أخلصْتَ عملك لله، وصدقتَ في طلبه وأتقنت إنجازه كان ذخرًا لك في الدنيا والآخرة بل ولم تحزن لبَخسٍ يصيبه في دنيا البشر أو استصغارٍ أو تحقيرٍ فأنت في النهاية، عاملٌ لله.

ولا ينفي هذا اجتهادَك في كسب الرزق في الدنيا، فإن بعض الناس لديهم خلطٌ في هذا المفهوم، يعتقد أن الركض خلف رزق الدنيا يعني ألا يفكر إلا في هذا الهم!

ونسي أو تناسى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ[٧٢])

---

[٧٢] الذاريات ٢٢.

ونسي أيضًا أن (اليد العليا خير من اليد السفلى)[٧٣]

ولا يتنافى العمل في سبيل الله مع كسب الرزق والعيش بكرامةٍ لا يُهان معها المسلم.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"فواللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم ولكني أخشى أن تُبسطَ عليكم الدنيا كما بُسِطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتُهلِككم كما أهلكتهم ".[٧٤]

ولو أنه تأمل حقًا لوجد أن السعادة الدنيوية هي حمل هَمٍّ عظيمٍ أخرويٍّ ينفعه في الدنيا والآخرة.

وأن حقيقة الإكرام أن يكرم الله العبد بطاعته، والإيمان به ومحبته ومعرفته. والإهانة: أن يسلبه ذلك، قال ابن تيمية رحمه الله: ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر، بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة.

لقد وضَح الطريق إليك حقًّا.... فما خَلْقٌ أرادكَ يستدلّ

وتذكر في هذه المسيرة دائمًا أن المعاصي قيدٌ وحبسٌ لصاحبها عن الجَوَلان في فضاء التوحيد، وعن جني ثمار الأعمال الصالحة وأن الاستقامة عطيةٌ من الله لا بالتملق والنفاق والرياء، ولكن بالقول السديد والعمل الصالح النافع، يعكِس صدق صاحبه وإخلاصه. ثم إن الهمم المبصرة قد تُلاقي مشقةً في تحقيق أهدافها، ولكن...

إن الأمور إذا استدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل مرتجا

لا تيأسَن وإن طالت مطالبةٌ إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فرجا

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) [٧٥] (وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) [٧٦]

---

[٧٣] رواه البخاري ومسلم.

[٧٤] رواه الشيخان.

[٧٥] غافر ٤٤.

[٧٦] الإسراء ٧٢

الفصل الخامس عشر: من تاريخ أمتنا الماجد... نبني مستقبلها



لكلٍّ منا ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ، ولكل ماضٍ حسناتٌ وسيئاتٌ، ولا شك أن النفس تغتبط سرورًا حين تستذكر أيامًا مضتْ حققَتْ فيها هدفًا أو إنجازًا أو سبقًا، هكذا جُبلت النفوس البشرية على تقدير النجاح والتفوق في مجالات الحياة... وهكذا يستشعر المؤمن لذة إيمانه حين يستذكر ما أقدم عليه من عملٍ وإحسانٍ في تاريخ حياته الذي مضى، كذلك هو حالنا مع أمتنا...

أمتنا التي لها ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ، ماضٍ لسنا مسؤولين عنه ولكننا معنيون بمعرفته والاعتبار به ومسؤولون عن حاضرها وربما مستقبلها لأننا جزءٌ منه... فكيف نُقدِمُ على حاضرٍ ومستقبلٍ ونحن نجهل الماضي، نجهل التاريخ الذي كانت منه البداية...!

فللأمة ماضٍ يتزاحم بتاريخ من النوازل والانتصارات، أيامٌ يداولها الله بين الناس، فكان فيها من آمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا، وأخَذَ هذا الكتاب بقوةٍ لم تأخذه الدَّنِية في دينه، فكان كالنجم كالقمر كالشمس ينير السماء، وكان فيها مَنْ غرِقَ في وحل الفشل والخيانة والسقوط فكان عبرةً لمن خلَفَ، إنه التاريخ الذي منه نتعلم وبتجاربه وكبواته نستعين لتجاوز عقبات حاضرنا ولنبني مستقبلنا نحن...

فمن لم يتبصر في تاريخ أمتنا، لن يستطيع أن يقدِّم شيئًا في حاضرها اليومَ ولن يكون له سهمٌ في إشراق مستقبلها غدًا، إنها حقيقةٌ على كل مسلمٍ ومسلمةٍ أن يوليَها قدْرًا من اهتمامه ونصيبًا من قراءاته ومطالعاته، لا يمكن أن نبني تصورًا أو أن نرسخ قناعةً أو أن نعتمد فهمًا دون أن نكون على اطلاعٍ على تاريخ أمتنا الماجد.

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم معلِّم الأجيال بعد الأجيال، أول تاريخٍ علينا أن نغوص في مكامنه، أن نتدبر في مواقفه، أن نستخلص الدروس من مراحله، أن نحفّز النفس على الاعتبار به.... ثم الصحابة والتابعين ثم الدول الإسلامية التي قامت واندثرت وكان لكل منها سُننٌ تقوم بها وسنن تهدمها... ثم تلك النوازل التي مرَّتْ كمَرِّ

السـنين تحط الرحال بكل دارٍ وترحل بمشـيئة الرحمن بعد أن يمتحن الله عباده. كل هـذا وأكثر لابـد أن يُلِّم بـه المسـلم والمسـلمـة لفهم واقعنـا وتجـاوز محنتنـا ولبنـاء مستقبلنا...

من هذا التاريخ الزاخر بكل التجارب والدروس والحكم، يمكننا إدراك عظَمة الإسلام، يمكننا تعلُّم أسـرار النجاح وفهم حقيقة النفس البشـرية التي إن آمنت واسـتقامت كانت الأكثر قدرةً على بناء حضارةٍ بشريةٍ مبهرة، يمكننا الاقتداء بالنموذج الأكثر تأثيرًا في نفوسـنا لنبني به هممَنا ونسـتدرك به ما فاتنا، ونصحح بها طريقتنا في الحياة، يُمكِننا من التاريخ البحثُ عن أحلامنا وآمالنا وكل ما هو من قبيل أهدافنا...

وتأمل معي ابن القيم رحمه الله عندما سُـجن شـيخُه ابن تيمية رحمه الله، في قلعة دمشـق بالشـام قال: كانت تُظلم الدنيا في وجوهنا وتقسـو قلوبنا، فما هو إلا أن نذهب إلى الشـيخ (يقصـد ابن تيمية) في السـجن فنرى وجهه فتنفرج أساريرنا، وتصفو نفوسـنا وننسـى هموم الأرض. هكذا كانت تفعل القدوة في التلميذ، ولا فرق بين قدوةٍ في واقعنا المُعاش أو قدوةٍ في تاريخنا الماجد، فلابد من بحثٍ عن تلك القدوة لتُحيِيَ فينا الهمة وتعيننا على الصبر وتكاليف السير.

إنها همسـةٌ أبثها لكل من أراد الانطلاق، من أراد الإنجاز وتحقيق أثرٍ في الحياة يسـتذكره حين لقاء ربه، موطِئ قدمٍ يحفِره في مسيرة الأجيال المسلمة، ليقول هذا جهدي، معذرةً إلى ربي، لم أكن من الجاهلين، بل سعَيت بكل ما أوتيت من عقلٍ وقوةٍ أن يكون لي يدٌ في تجاوز محنتنا والتمهيد لمسـتقبل أمتنا الذي لن يكون إلا الأفضـل إن كنا له أهلًا... وأقبلوا بعطاءٍ وبذلٍ فاستحقوا ذلك الفضل والمستقبل الماجد.

وإلا فسـيأتى الله بقومٍ يحبهم ويحبونه قد تبصروا فى التاريخ وأدركوا الحكمة فيه

الفصل السادس عشر: صفحات عليك أن تكتبها أنت



قرأتَ عن الالتزام وربما أبحرتَ في كتاباتٍ كثيرةٍ عن الاستقامة، وَقَرَ في قلبك منها ما وَقَرَ ونسيت ما نسيت ولكن تأكد أن ما ستكتبه أنت سيكون بحقٍّ هو الإنجاز.

اكتب أنت ورقاتك التي تخطها بحبر الصدق والإخلاص والتفاني في العمل، ورقاتٍ تكتبها بمدادٍ من اليقين والإيمان والشوق والفرار إلى الله، فلكل نفسٍ بشريةٍ إحساسٌ منفردٌ وطريقةٌ في التعبير تختلف، لا تكن متكاسلًا بل كن مقلدًا لمن سَلَفَ ومجددًا لمن خَلَفَ، قدِّم للمسلمين ذكرى تنفعهم بتجربتك وخبرتك، دوِّنها لتكون جزءًا من التاريخ... من الحاضر... من المستقبل، إنه عِلمٌ بحقٍ، يستحق منك الكتابة والتبصر والبحث، إنها خبرةٌ تستحق منك أن تورثَها غيرك.

> اترك لمن بعدك تذكرةً أو أثرًا... ذلك أضعف الإيمان، اجعل من قصة التزامك قدوةً ومثالًا يُحتذى به، اجمع نصائحك، حذِّر من سقطاتك، ليس مهمًا أن يعرفك أحدٌ، بل المهم أن ينتفع منك أحدٌ.

إن هذه الطريق يسير فيها الآلاف بل الملايين ممن افتقد الناصح الأمين أو المعلم الحكيم... أبحر بظلمةٍ تتوق نفسه للاستقامة... للتحليق... للتخلص من حالة التيه والوحشة، ولكنه يجهل المحطات المؤدية لها، يحتاج لمن يعينه بكلمةٍ... بتذكرةٍ، بنصيحةٍ صادقةٍ، لينطلق حرًا وقد تخلص من قيود التأخير، إن منهم من قد ينطلق من دعوةٍ واحدةٍ كالريح يسابق ويعدو يستدرك، لأن الله جعل في قلبه صدقًا وإن رُبِّيَ في وسطٍ سيءٍ بل إن ثمرات صدقه قد تبهرنا!

حين نتأمل في سير عظماء الإسلام، نجد لأكثرهم قصة تحدٍ تلهمنا، بل إن منهم من كان عبدًا مملوكًا ولكنَّ الله رفع ذكره ونصر به الإسلام وجعل صدقه آيةً لِمَن بعده، ثم لا تتعلقْ كثيرًا بالأسباب بل برب هذه الأسباب، انظر كيف كان سيف الدين قطز، قائد

المسلمين في معركة عين جالوت المجيدة، ابن أخت الملك جلال الدين خوارزمشاه، رُبِّيَ في وسطٍ ملكيٍ... في وسطٍ قياديٍ... ثم ابتلي بالسَّبي والرِّق والبيع في أسواق النخاسة على أيدي التتار! فهل نفعَتْه حينها تلك المكانة، هل حفظتْه من الإهانة ؟!

ثم حين أراد الله أن يقهر به التتار أنفسهم الذين كانوا سببًا في تعاسته، هيأ له الأسباب، وإن الله إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه، فنقله بمحنةٍ من بلاد الخوارزميين إلى بلاد المصريين، كل هذه المسافة، ليلقى المنحة... لينشأ على القرآن وتعاليم الإسلام والرماية وركوب الخيل، وليصبح فارسًا، يحطم الله به أكبر غطرسةٍ في ذلك الزمان، غطرسة هولاكو وجنده الطغاة.

هل استعان قطز بمكانة أسرته أم بإيمانه وعزته كمسلمٍ أبى أن يذل أمته تتاريٌّ مغوليٌّ همجيٌّ نجسٌّ ؟!

ورغم أن مدة حكمه كانت قصيرةً إلا أنه قدَّم فيها الإنجازات التي خلدت ذكراه، إنه رجلٌ لم يبحث عن عظيمٍ ينصر الإسلام بل كان هو ذلك العظيم الذي يهب لنصرة الإسلام، فانظروا كيف تكون همة المسلم. ولو تفرَّسنا في سير عظماء الإسلام لوجدنا في سيرة كلٍ منهم سرًا للتميّز والتفوق والنجاح، رغم التحديات التي قد تهدد مسيرته وتجهض طموحاته.

إن الإسلام بحاجةٍ لمن يحمل همّه وينشغل به لا من يغفل عنه ثم يطلب فضله وعزته، ومن أَعَزَّ الإسلام وطلب عزته أعزه الله وحفر سيرته تذكرها ملائكة السماء وتدوِّنها سجلات تاريخ الأرض.

ثم إن صلة العبد بخالقه صلةٌ عظيمةٌ بل هي أعظم ميثاقٍ بين اثنين، بين بارئك ومصوِّرك وبينك أنت العبد، فلْتكن هذه الصلة وهذا الميثاق تحت رعايتك الدائمة وعنايتك المستمرة وتفقُّدِك الحريصِ في كل حينٍ، لابد أن تستشعر أن لك ربًا وأنك له عبدٌ وأن بينكما صلةً هي الأغلى والأخص والأهم والأقوى.

إن هذه العلاقة لا تحددها ساعةٌ معينةٌ ولا ظرفٌ معينٌ فأنت القادر على الإنابة لله والتقرب منه في كل حالاتك وفي كل ظروفك، إنها أثمن ما تملِك وأول وآخر ما تحفَظ.

ضع يدك على صدرك، استشعر دقات قلبك، مَنْ أَمَرَ هذه العضلة أن تنبض، من جعل فيها هذه القدرة على الخفقان ليُحيي معها جسدٌ عظيم الأسرار بانتظامٍ، كل دقةٍ ينتظم معها جسمك تقوى بها خلاياك وتستمر في الحياة. فإن أنت أغفلت أهمية هذا القلب فتذكَّر، أنه سيتوقف عن الخفقان يومًا، سيختفي نبضك لا محالةَ، وحينها إنه الموت، هادم اللذات وقاهر الجبابرة ومصير كل العباد والمخلوقات، فهل من مفرٍّ؟ إلى أين أيها المغتر؟!

إن راودَتْك غفلةٌ ما، فقط ضع يدك على هذا القلب وتخيل لحظةً واحدةً أنه سيتوقف في أي لحظةٍ، فما أنت فاعلٌ حينها، اليوم هو ينبض إذًا ما زالت أمامك فرصةٌ للاستدراك... للتوبة والتقرب من الله، احرص على أن تديم اتصال قلبك بالله حتى يُكرِمَك بنور الإيمان وسكينة القرب من خالقك، وإن توقف عن الخفقان وأنت على هذه الحال من التوحيد والعبادة، فإن روحك ستكون في برزخ السعداء، برزخ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، برزخ الذين أحسنوا الإخلاص والسعي والعمل فطمعوا في رحمة ربهم وعفوه وعظيم أجره.

وهذه الصفحات التي ستكتبها ليس بالضرورة أن تكتبها حبرًا على ورقٍ، بل يكفي أن تكتبها سيرةً صالحةً بين الناس، يكفي أن تكتبها حسناتٍ في كتابك يوم تلقى الله، فإن للحسنات عَدَّادًا، وللسيئات عَدَّادًا آخرَ، فاحرص أن يتفوق عدادُ حسناتك دومًا على عداد سيئاتك بل احرص على محوها تمامًا ما دمت تملك سرًا لهذا المحو، (إن الحسنات يُذهبن السيئات).

حين تحمل هذا الهم على كاهلك وتنظر للهدف السامق في حياة كل مسلمٍ: رضوان الله سبحانه وتعالى، تصغُر الدنيا في عينك ويتلاشى بريق ملذاتها في حياتك لأنك بدأت

تبصـــر النور الحقيقي يتجلى... وكلما تقربْتَ من الله كلما فتح عليك في العبـادات والدعوات.

ثم إن القلـب الـذي يتصـــل بـالله تتغير موازينـه وتصـــوراتـه، تتغير نظرتـه للحيـاة وللأهـداف، ولـذلـك فـإن بعض النـاس لـديـه قـدرةٌ على التغيير ســـريعـةٌ عجيبـةٌ، لا يســتغرق منهم الأمر إلا مجرد العزم ليظهر عليهم ما عجز عنه آخرون رَبَوا في وســط الاســتقامة، ذلك أنهم أدركوا أن صـلة الإنسـان بربه أثمن الصـلات وشـعروا بفداحة التقصير فأبوا إلا التعويض عما فاتهم والفوز بالمراتب العلا لا دونها.

ومن روعة هذا الدين وكرم رب العباد، أنه مهما بلغ بالمرء السـوء والتراجع أو السـقوط فإن باب التوبة ما زال مفتوحًا بفضل الله ومِنَّته، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). [٧٧]

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال: قال الله عز وجل: (أنا عنـد ظن عبـدي بي وأنـا معـه حيـث يـذكرني واللهِ لَلَّهُ أفرَحُ بتوبـة عبـده من أحدكم يجد ضـالته بالفلاة ومن تقرَّب إليّ شـبرًا تقربْتُ إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا وإذا أقبل إلي يمشي أقبلت إليه أهرول). [٧٨]

إن لكلٍ منا موهبةً أو قدرةً أو طاقةً تؤهله لتحقيق إنجازاتٍ رائعةٍ في حياته وحياة المسـلمين، ولكن المشـكلة في الإرادة والإيمان بأننا نسـتطيع ذلك، فما زال أعداء الأمة يزرعون بذور الانهزامية في مجتمعات المسـلمين ويسـقُونها بإعلامهم وفنون دجلهم، ليُخمدوا فتيل العزة والإباء في صـدور أبناء الإسـلام، ولكن العقلاء قد أبصـروا هذا

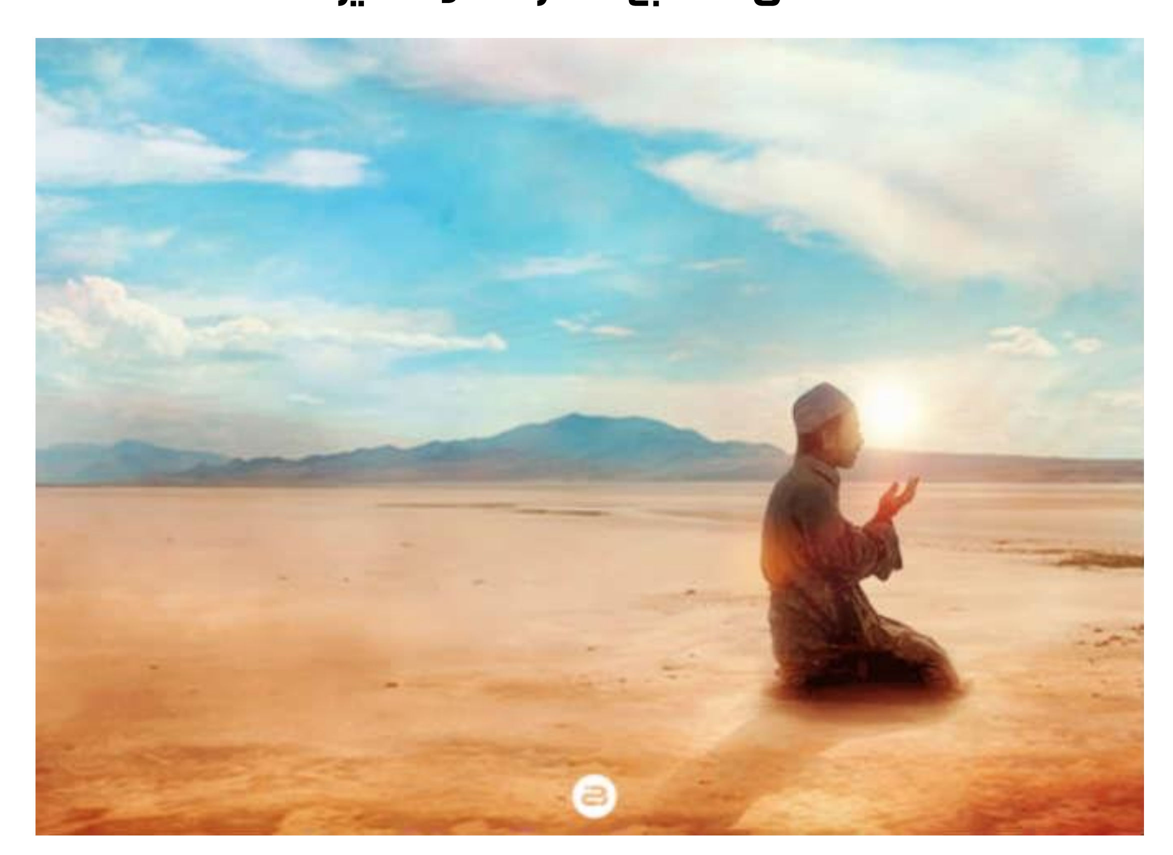
[٧٧] التحريم ٨.
[٧٨] رواه مسلم.

المكر وأقبلوا يقلِبون صفحات الروتين والفراغ الممل ويمزقون صفحات العبث والتيه والتخبط في اختيار الأهداف ومشاريع الحياة، ليخُطُّوا في دفاترهم، صفحاتٍ جديدةً من التوبة والعودة لطريق الله، من العلم والعمل والعزم والحزم، من وضوح الرؤية وفقه الدنيا والآخرة.

إنها الصفحات التي على كلٍ منا الاعتناء بها لتكون حجةً لنا لا علينا يوم نلقى الله، ولا أفضل من دفتر ملتزمٍ تتزاحم فيه الأعمال والعبادات والمشاريع الراقية التي تبني الإنسان وتبني الأمة... فكن صاحب ذلك الدفتر وكاتب تلك الصفحات.

وما من كاتبٍ إلا سيفنى ويُبقى الدهر
ما كتبت يداه فلا تكتبْ يمينُك
غير شيءٍ يسرُّك في القيامة أن تراه

الفصل السابع عشر: كلمة أخيرة



يُقال إن أفضل الكلام هو الذي لم نكتبه بعدُ، هو الذي لم نستخرجه بعدُ من قرارتِنا، ولعل من أسباب ذلك، أن عظمة المواقف قد تبخَسُها الكلمات حقها، وكذلك عظَمة بعض المواضيع قد لا توفِيها الكلماتُ حقها ويبقى وصفها الأوفى في مكنونات القلب، ولكن الاجتهاد في الإيضاح والتفصيل والدعوة يعتريه شوقٌ من أجل أن تطرق هذه الكلمات قلوبًا مقبلةً، قلوبًا قد استنشقت عبير الإيمان واستشعرت قيمة الحياة وأهمية العمل والاستقامة كما أمر الله سبحانه وتعالى.

وإن كان ما أحمِله من حديثٍ عن الالتزام لا تَسَعُهُ هذه الصفحات إلا أنني رأيت أن الاختصار والإجمال مع بعض التفصيل من حينٍ لآخر قد يختصر المسافة ويلخص الرسالة...

وكيف يمكننا أن نَفِيَ الاستقامة حقها وقد ألّف في هذا الباب العلماء وأولو الفضل آلاف الصفحات والكتب، ولم يزالوا يبسطون ويفصِّلون أسرارها حتى لا نكاد نحصر مؤلفاتهم، لأنها ببساطةٍ طريق الفوز والنجاة، بل هي مشروع الحياة، مشروع العمر الذي على كل مسلمٍ ومسلمةٍ العناية به.

إن الاستقامة ليست كما يصورها بعض المغرضين، تعصبًا وتنطعًا وجفاءً وغِلظةً، بل هي تمام الاتزان والسرور والمحبة والعدل والعقل والخُلُق، من عرفها لا شك فَقِهَ سرّها ومن علِمَها لا شك أدرك جمالها، ولكننا نعيش في عالَمٍ بشعٍ، عالم مُبخِس، يحارب كل ما يتصل بجمال وروعة هذا الدين الإسلامي الحنيف، فيسعى جاهدًا بآلاته الإعلامية وأقلامه المأجورة وعدساته الموجَّهة ومنظماته المدسوسة، لتشويه صورة الملتزم وحرف الناس عن حقيقة السعادة التي يعيشها مع مَنْ حوله، فيدفع بعضَ الناس للخوف من مجرد الحديث عن الالتزام لأنه مرعِبٌ ومجحفٌ ومقوِّضٌ لحريات المرء حسب زعمهم، في حين أنهم غفلوا عن أن الحرية تمامَ الحرية هي العبودية لله وحده سبحانه وتعالى، لا عبودية الشهوات والملذات الدنيوية، وأن تمام النجاح هو الثبات على طريق الله لا طريقٍ تتلاعب به أهواء البشر، وأن الفوز الحقيقي هو الفوز برضا رب العالمين في

الدنيا والآخرة لا فوزٌ له تاريخ صلَاحيةٍ معيّنٌ، ثم يكفي النظر إلى مصاب الأمة المسلمة وتوالي النوازل والنكبات عليها في كل مِصْرٍ وزمان ليصبح الحديث عن الاستقامة الأول على قائمة العلاجات لهذه الأمة، ذلك أن الابتلاء أو العقاب هو لإيقاظ الناس من سُباتهم إما للتوبة والاستغفار والفرار إلى الله والاستقامة كما أمر، وإلا فنهاية الظالمين أعاذنا الله منها، وكفى به سببًا مرعبًا يدفع الناس إلى التزام الاستقامة والرجوع إلى طريق الله! قال تعالى: (فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ). [٧٩] وقال: (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)[٨٠] وقال أيضًا: (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ). [٨١]

إن التيارات والقُوى الهدامة لحقيقة الاستقامة والالتزام ولضرورة الدعوة لذلك، قد بذلَتْ كل الوسائل والأموال لإنجاح مخطط سلخ المسلمين من إسلامهم وتحويلهم لأجسادٍ جوفاءَ من كل ما يميّز الإسلام، بل حصروا الإسلام في بعض المظاهر وأقصَوا كل أسباب قوة المسلم واعتزازه، فأصبحنا نشاهد السخرية من المتدين الملتزم والتحقير من مقامه في حين يُرفَع الفاسق والعاصي لمراتب الشهرة والتعظيم والتبجيل، وهذا المقياس الفاسد لمراتب البشر واهتماماتهم هو الذي يحرص عليه أعداء الإسلام، هو الذي يسعَون لزرعه بيننا... لنستهين بديننا وعِظم الأمانة التي وُكِلَتْ إلينا، لنشعر بالانهزامية والاستحياء من آخر الأديان على الأرض!

وإن كانوا قد نجحوا لدرجةٍ ما في إبعاد أبناء هذه الأمة عن أحكام وشرائع دينها إلا أنهم لم ينجحوا في فصلهم تمامًا عن علاقتهم بربهم، فإنه لا توجد قوةٌ في العالم تمنع مسلمًا من أن يناجي ربه أو يدعوه أو يستغفره ويتوب إليه، مهما بلغ به العصيان من

---

[٧٩] الأنعام ٤٣.

[٨٠] المؤمنون ٧٦.

[٨١] الأعراف ١٦٥.

مبلغٍ ومهما بلغ به الظلم في حق نفسه ومَنْ حوله، لأن السكينة هي راحته وسعادته في نهاية المطاف، فإن شعر بها تدنو مع دُنُوّه للتوبة فلن يباليَ بكل مطامع الدنيا، لأن سكينة الروح هي مكسب الدنيا الأكبر.

ثم إن وعد الله حقٌّ، ولا بُدَّ أن مصيرنا جميعًا بلا تمييزٍ هو الموت ثم الحساب قال الله تعالى: (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ[٨٢]). فهل سيُعجز اللهَ الغافلُ الظالمُ لنفسه! كلا وربي إنه لَحَقٌّ ولكنهم يكابرون. وسيبقى سبيل الاستقامة هو السبيل الوحيد للنجاة، قال تعالى: (وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [٨٣]

قد علمتَ والتزمتَ وجاهدتَ نفسك للثبات على طريق الاستقامة فما وصلتَ إليه إنما هو محض فضلٍ من الله سبحانه وتعالى، (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلًا). [٨٤]

والآن بعد هذه الرحلة العظيمة في حياتك والتغيير الكبير في يومياتك، لا شك أنك عرفتَ نفسك وأدركت ميولك، وصنَّفت طاقاتك لكل عبادةٍ، ولقد ميّز الله الناس باختلافاتهم حتى في ميولهم التعبدية، وهذا من رحمة الله سبحانه، فقد تجد نفسك أكثر حبًّا للصلاة من غيرها من العبادات أو أكثر حبًّا لتلاوة القرآن وربما أكثر حبًّا للصدقات أو العمل الميداني، كل هذا طبيعيٌّ متوقعٌ. لا تقلق ولكن ثابِر على الاجتهاد في بقية العبادات أيضًا حتى لا تقصّر في جانبٍ من جوانب العبادة وتُحرَم لذته وأجره، وحتى تكون كأبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه الذي يدخل الجنة من جميع أبوابها.

ثم إنك قد تلاقي جفاءً أو برودةً في الهمة وهذا حال الإنسان بين صعودٍ ونزولٍ، تارةً متحمسٌ وأخرى فاترٌ بلا همةٍ، فعليك بالعلاج المجرَّب الناجع الذي نصح به السابقون

---

[٨٢] الأنعام ١٣٤.

[٨٣] الأنعام ١٥٣

[٨٤] النساء ٨٣.

لكل من أحب الاستقامة وتعثَّرت خطاه في سبيلها، إنه تلاوة القرآن، كلما كسَلتَ اقرأ القرآن، كلما شعرت بقصورٍ في العبادة استعن بالله وأقبل على القرآن، فبذكر الله تطمئن القلوب وبقراءة القرآن ترقُّ الأفئدة، فيه شفاءٌ للناس، فيه القوة والمدد لعزيمتك حتى تغلِبَ شيطانك وتقهر هواك (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ). [٨٥].

كن قناصًا للفرص، كلما اشتعلَتْ هِمَّتك سارع لتحقيق أكبر درجةٍ من العمل الذي يقربك من الله سبحانه وتعالى وكلما فَتَرَتْ همتك اجعلها مرحلةً لاستراحة مقاتلٍ، تحاسِب فيها نفسك، تعالجها بالانكباب على المطالعة والتفكر، تنهل من مدادٍ خُطَّ بالعلم والتجربة والحكمة، فتنعش قريحة الإلهام لديك ويشتعل فتيل همتك من جديدٍ.

ثم دعني أُسِرُّكَ سرًّا، إن أسعد الناس بحقٍّ على وجه هذه الأرض مسلمٌ أدى ما له وما عليه في يومه وليلته ونام خاليَ البال من ظلمٍ يخنُقه أو هم دنيا يشغَله، فَذَكَرَ الله مشتاقًا لرؤيته وفاضت عيناه حين اخترق صدرَه نورُ السكينة الذي يشِعُّ به القلب قوةً وبصيرةً ويقينًا، وكأنه مَلَكَ الدنيا بأسرها، يكسو جسدَه رعشةُ الإيمان والتسليم لخالقه، لا يرجو إلا رضاه فهل يستوي هو ومن حمل هموم الدنيا على رأسه وتأرّق نومه وأشباح الظلم تلاحقه في الكوابيس؟!

ثم انظر للملتزم المجتهد، لديه همةٌ تحرّكه ولديه أهدافٌ سامقةٌ يسعى لها ولديه كل الأسباب ليعيش راضيًا سعيدًا رغم عقبات الدنيا، لأنها صغُرتْ في نظره وعلم أنما تقضي هذه الحياةَ الدنيا وأن كل ما خلا الله باطلٌ. وإن قارنتَ بين نفسك من قبلُ وكيف هي الآن، فلا شك أنك ستجد المسافة بين المقامين بعيدةً جدًا وأنه لم يتطلب منك إلا بعض الجدية والالتفات لكلام ربك ولوصايا نبيّك لتستدرك وربما تسبق،

---

[٨٥] الأنعام ١٣٢.

فالجدار بين المقامين هو عقبةٌ نفســيةٌ لا غير، لا تلبث أن تتلاشــى مع تغيير ما في نفسك، (ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِـهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [٨٦]

فاحفظ نعمة الالتزام بحمد الله وشـكره ومجاهدة النفس وتطويعها، وتدبَّر أسـباب الثبات والأخذ بها، فإنه طريقٌ ما إن ترتقي فيه درجةً حتى تسـتصـغر نفسـك ماضيَها وتشــعر بعظمة ربها وأهمية مســاعيها... ومن ذاق حلاوة الإيمان لم يَزَلْ يتوق للأكثر ويصبح التراجع أمرًا مستحيلًا ودمارًا أكيدًا.

ثم إن الابتلاء سُـنةٌ في هذا الطريق، ولكنه يقوّي المؤمن ويكسـر المرتاب، فكن صـاحب اليقين الذي يتجاوز المحن بصـبرٍ وثباتٍ تحدوه. (فَاصْـبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْـتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَـبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِـيِّ وَالْإِبْكَارِ). [٨٧] ويردد في كل حينٍ، (ربي إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي).

أيها الملتزم انتهت صـفحاتنا ولم تنتهِ اجتهاداتنا ولا أمانينا، لأننا نعلم يقينًا أن اجتماعًا بديعًا سيجمع تلك النفوس الملتزمة في جنةٍ عاليةٍ قطوفها دانيةٌ لا تسمع فيها لاغيةً فيها عينٌ جاريةٌ فيها سـررٌ مرفوعةٌ وأكوابٌ موضـوعةٌ ونمارقُ مصـفوفةٌ وزرابيُّ مبثوثةٌ، تدخل عليهم الملائكة في بهجةٍ وسرورٍ وترحيبٍ وتكريمٍ وترعاهم رحمةُ الله وكرمه وعفوه وإحسـانه وهو ذو الإحسـان والفضـل العظيم، تتحقق فيها جميع الأماني وتنتهي معها جميع الآلام والهموم، إنها جنة الخلد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

والحمد لله وصلى الله على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن وَالاَهُ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

---

[٨٦] الأنفال ٥٣

[٨٧] غافر ٥٥.

تم التحرير والنشر عن طريق أمّة بوست



أمّـة بوســـت: لأننا لا نرضى لأمتنا أن تظل أســـيرةَ شـــاشــــاتٍ جعلت الكرةَ معركةً وصراعًا، والمقاومةَ إرهابًا، والإرهاب الواقع حقًا حربًا مقدســـةً من أجل تحرير الشعوب، والفواحشَ حريةً، والانحلالَ تقدمًا، جعلتْ من الأوهام حقائقَ وغيَّبت عنا الحقائق التي تقع على الأرض حتى بات من غير المســموح لنا أن نرى إلا ما يريدون هم أن نتصوَّره ونراه!

لذا جاء إطلاق أمة بوست لتكون خطوةً على الطريق لصناعة الوعي لكل أفراد أمَّتنا الإسلامية





